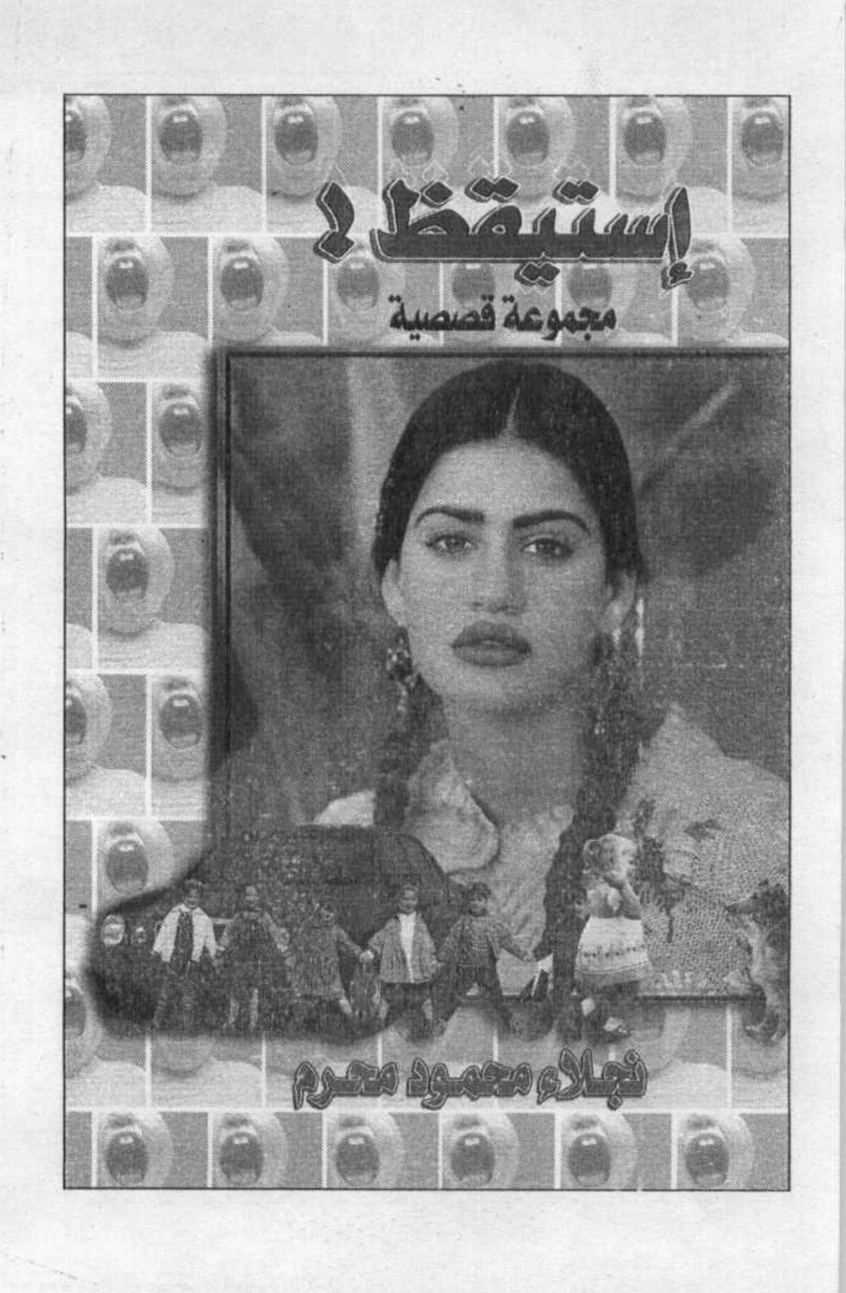


إستيقظ!
مجموعة قصصية
نجلاء محمود محرم

■■ الغلاف والإخراج الفنى :

مجدى حجازى

■■ المراجعة اللغوية :

أشرف مصطفى
محمود فراج

■■ جرافيك الغلاف :

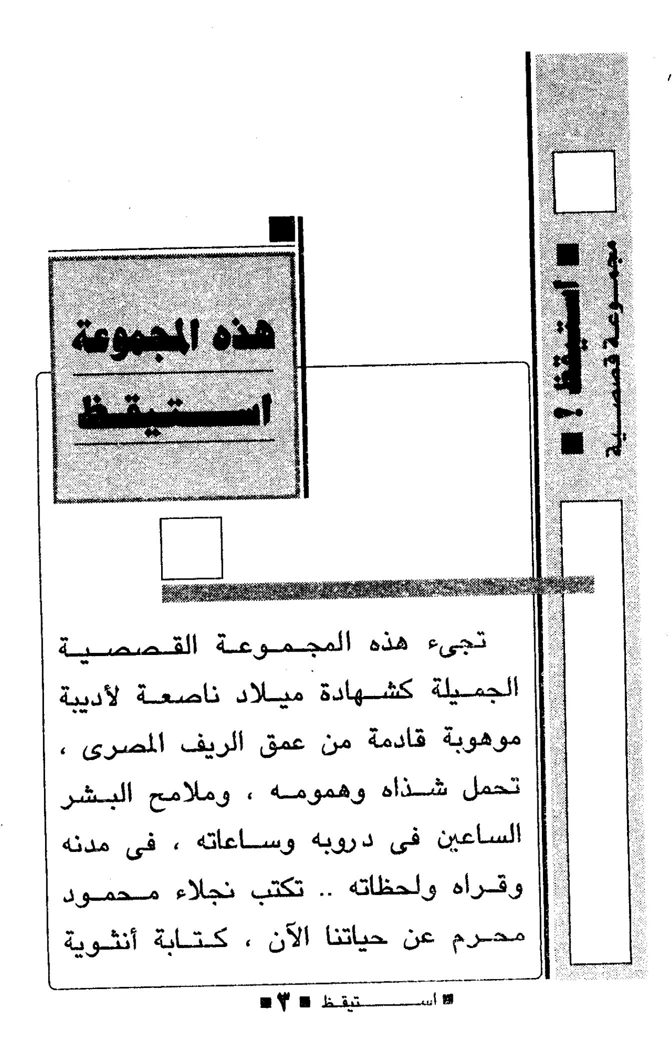
مهندس خالد أنور

■■ تنفيذ الماكيت بالكمبيوتر :

يوسف الطباخ

■■ المطابع :

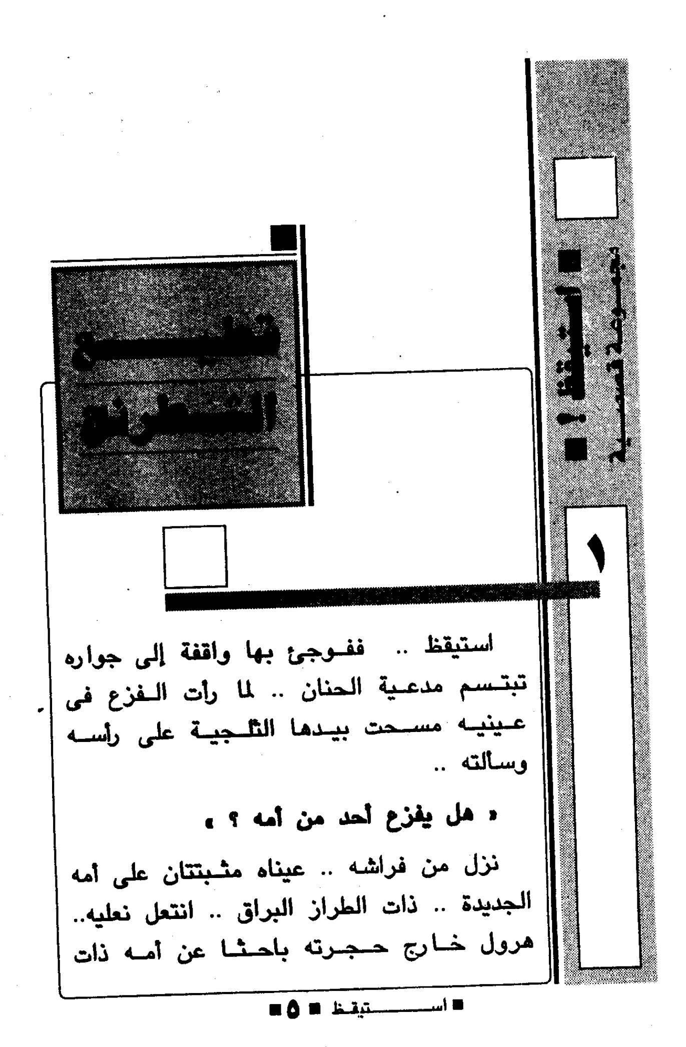
مطابع دار أخبار اليوم



تجىء هذه المجموعة القصصية الجميلة كشهادة ميلاد ناصعة لأديبة موهوبة قادمة من عمق الريف المصرى ، تحمل شذاه وهمومه ، وملامح البشر الساعين فى دروبه وساعاته ، فى مدنه وقراه ولحظاته .. تكتب نجلاء محمود محرم عن حياتنا الآن ، كتابة أنثوية

لا تعبـر عن هموم المرأة الـتى اعتدنا أن نـقرأها ، ولكنهـا تتعـامل مع الواقع ، وتعبـر عنه بملامـسة الأنثى ورؤيتـها وكل مـا فيهـا .. ونتائـج تربـطها بالبشر والناس .. وتنفـذ إلى أدق الخلجات الخاصة وتطال مناطق لم تطرقها الكتابة من قبل ، إن قطاع الثقـافة بدار أخبـار اليوم يهـدى إلى الأدب العربى موهبة حقيقية وأصيلة .

جمـال الغيطـانى



١

استيقظ .. ففوجئ بها واقفة إلى جواره تبتسم مدعية الحنان .. لما رأت الفزع فى عينيه مسحت بيدها الثلجية على رأسه وسألته ..

« هل يفزع أحد من أمه ؟ »

نزل من فراشه .. عيناه مثبتتان على أمه الجديدة .. ذات الطراز البراق .. انتعل نعليه.. هرول خارج حجرته باحثا عن أمه ذات

الثوب المهترئ الباهت ..

البيت الكبير امتلأ بالناس .. ألوانهم كثيرة .. أطوالهم متفاوتة عيونهم فزعة .. يهرولون هنا وهناك بحثا عن أمهاتهم الطيبات .. فلا يجدون إلا الأخرى ذات الطراز البراق ..

يوم جاءت الكاذبة .. ضاعت الأمهات .. ترى أين ذهبت بهن؟

لما اكتشفوا أن أمهاتهم تحولن إلى خادمات لدى الكاذبة .. ثاروا .. وتوعدوا .. لكن بصوت خفيض .. فلو سمعتهم الكاذبة ستغضب .. ولو غضبت فلا خبز ولا ماء ولا دواء..

« سننتقم .. لكن دون أن نغضب الكاذبة »

وتسمعهم الكاذبة فتبتسم فى استخفاف وتحدث نفسها « قولوا ما شئتم مادامت أمهاتكم مازلن خادماتى »

الخادمات لم يعدن يُثرن عواطف الأبناء الذين اعتادوا أن يروا أمهاتهم خادمات .. ومثلما تشرق الشمس .. وتلسع النار .. ويزقزق العصفور .. فهؤلاء خادمات !

لكن ذا الشارب .. لم يعتد الأمر .. ظل حنينه إلى الماضى ودفء البيت القديم .. يؤجج مشاعره .. أخفى أعواد الثقاب تحت سريره .. وإلى جوارها عيدان

الحطب .. وأمل الحرية يجعله أكثر حماسا فى عصر الزيتون ليجلب قطرات الزيت . ولما اكتملت الخطة .. ولم يبق إلا إشعال النار فى حزمة الحطب الملطخة بالزيت وقذفها فى وجه الكاذبة .. فوجئ بالنيران تشتعل تحت فراشه . وبالكاذبة تصرخ فى سكان الدار .. أن يبتهجوا.. فقد أنجتهم من الخائن الذى خطط لهلاكهم .. صفعوه وركلوه .. ومع كل صفعة أو ركلة ينظرون للأم مستطلعين مدى رضاها عنهم ..

تسلسلت الأعناق فى قيد الأم .. أصبحت تسحب كل سكان الدار أينما ذهبت .. وهم يجرون خلفها على أيديهم وأرجلهم .. وإذا تباطأ أحدهم تلقيه بشعاع حارق من عينها الحمراء يحرقه ويحرق من حوله .. الجميع يدفع الجميع وراءها .. وإذا حكمت على أحدهم بالموت جوعا أو ذبحا .. لا أحد يسأل .. ما عادوا يتحدثون .. لم تعد تهمهم الأسباب .. الكل يفر إليها من الموت !

يقفون كقطع الشطرنج .. تمد يدها .. تحركهم .. تقدمهم .. تؤخرهم .. أو تقتلهم .. هى تلهو ؟ ربما ! وهم ينتحرون ؟ ربما !! لماذا لا يهربون من رقعة الشطرنج ؟!

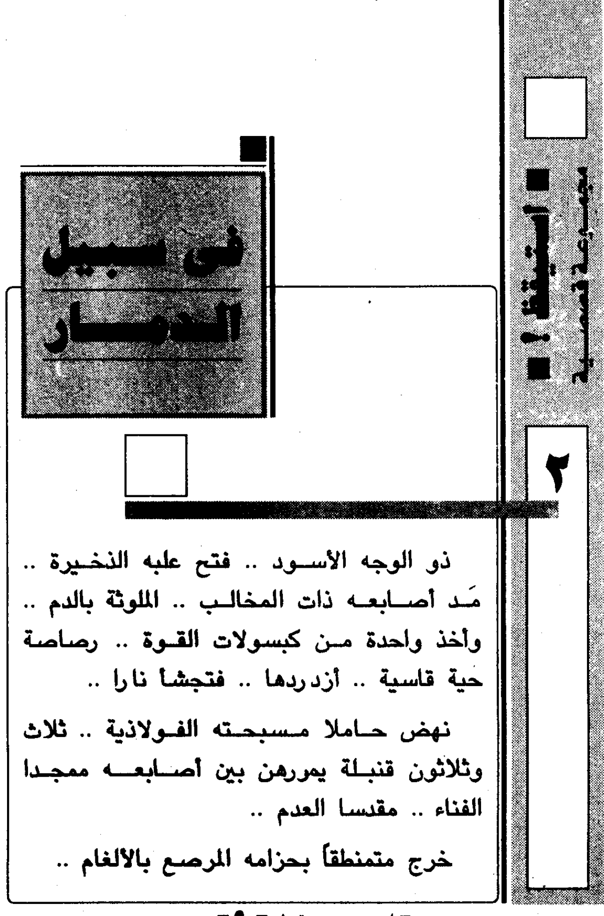
هل أصبحت حقا بلا نهاية ؟

الأم صارت بلا أبعاد .. ممتده من أقصى اليمين

الذى لم يعرف بعد .. إلى أقصى اليسار الذى لم يعرف بعد أيضا .. طولها لا نهائى .. الأم صارت فى كل الأنحاء ..

ماذا تفعل قطع الشرنج .. غير أن تنام على مربعاتها السوداء أو البيضاء .. وتحلم كل يوم أنها تقتل الأم ؟

فبراير ١٩٩٧



في سبيل الدمار

ذو الوجه الأسود .. فتح علبه الذخيرة .. مَد أصابعه ذات المخالب .. الملوثة بالدم .. وأخذ واحدة من كبسولات القوة .. رصاصة حية قاسية .. أزدردها .. فتجشأ نارا ..

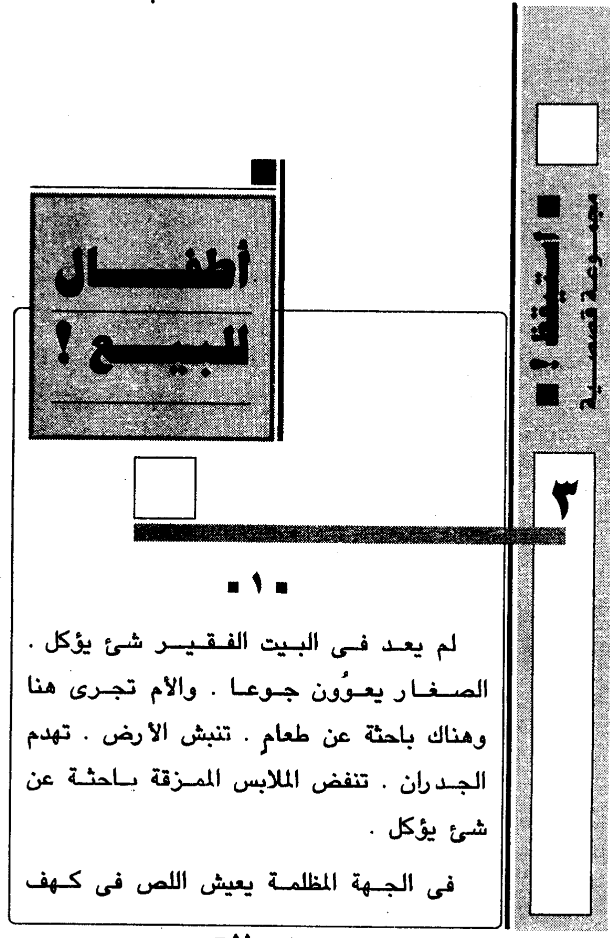
نهض حاملا مسبحته الفولاذية .. ثلاث وثلاثون قنبلة يمررهن بين أصابعه ممجدا الفناء .. مقدسا العدم ..

خرج متمنطقاً بحزامه المرصع بالالغام ..

طا فى سبيل الدمار.

طلّ صغاره من الشقوق.. جَـرَوْا إلى علبة الكبسولات.. محاولين أن يبتلعوا رصاصة .. ليتجشأوا نارا مثل أبيهم.. الرهيب..

ينـــاير ١٩٩٥



■ ١ ■

لم يعد فى البيت الفقير شئ يؤكل . الصغار يعوُون جوعا . والأم تجرى هنا وهناك باحثة عن طعام . تنبش الأرض . تهدم الجدران . تنفض الملابس الممزقة باحثة عن شئ يؤكل .

فى الجهة المظلمة يعيش اللص فى كهف

يحرسه تنين . اللص - طويل اليد - يمد اليد يصطاد الخبز !

الأم .. تستجدى الجيران والجيران يستجدون الجيران . والجوع يفرك الجميع . واللص فى كهف يحرسه تنين يصطاد القوت.

الأم .. تدور وتدور .. تبحث عن شي يوقف موت الأبناء.. وأبدا لا تذهب للص .. هى تخشى التنين وتخشى اللص .. هى تعرف أن اللص يسرق قوت الأبناء لكن لا تذهب .. الإبن يموت وراء الإبن ولا تذهب !

تحمل موتاها في عربة يد خشبية . تدفع عربتها وتسير . تقطع مسافات وتصل للبلدة البعيدة . ترفع صوتها وتنادى :

- أطفال موتى للبيع !

أهل البلدة لا يهتمون . تظل تنادى وتنادى . وتجوب الأسواق . تطرق كل الأبواب .

- يا أسيادى .. من منكم يحتاج لجثة طفل يحنطها ويزين مدخل قصره ؟!

اقترب الرجل المكتظ بلحمه .. وضع على كتفها كفاً أبيض مزداناً بخواتم من دُر

- يا امرأة ، ماذا نفعل بالأموات ؟

جرّت فى يدها أطفالا أحياء . وصاحت

- أطفال أحياء للبيع !

عـادت للبـيت حـاملة خـبزاً - هو ثمـن الأبناء - لتطعم باقى الأبناء .

لكن اللص مد اليد .. وسرق الخبز من أفواه الجوعى .

■ ٢ ■

يحيـا الأطفال المبـاعون في البـلدة البعـيدة . يبحـلقون بعيـونهم ويتعلمـون . هذا ذهب . ليس الذهب كـالحديد . نحن حديد . نحمل أثقالا . نتلقى الطرق فلا نتفتت . نحن حـديد . رخاص السـعـر كبـار العزم . مـنا تصنع أعمـدة الدور وأفران الخبـز . منا تفتل قضبان السـجن وسيوف الجلادين . **هل يمكن يومـا أن يبنى دار فوق أسـاس من ذهب ؟ أن يُخْبَزَ خبز فى فرن من ذهب ؟ هل تقطع رأس بسيف من ذهب ؟**

نحن حـديد . لـكنا نسـجـد للذهب المـتـراخى . نمسح نعليـه.. نسلك أذنيه نصـفف شعـره وندلك جسـده . نحن عبيـد .. باعتنا الأم مقابل بـعض الخبز ! **لماذا يا أم ونحن أساس البنيان ؟**

قالت :

ـ هل آكل صلبا ؟ هل أُرْضِع أطفالى مصهور الفولاذ ؟ أئتونى يوما بحفنة قمح لألملم شمل الأشتات !

لكنا يا أم لم نجد القمح . الذهب يروح ويأتى الخبز . فى البلدة البعيدة يا أم لا يوجد قمح . يوجد ذهب . نحمله فوق الأكتاف لقصر الحاكم . نسكبه فى بئر الحاكم . يلقون إلينا أرغفة الخبز . نحملها ونعود ليأكل أسيادُ الذهب .

قصر الحاكم أسواره بلا نهاية . ترتفع حتى تختفى بين الغيوم .

لا ندرى يا أم ما خلف الأسوار . لا نعرف إلا بئر الحاكم نلقى فيه الذهب . وطاقات السور يلقى منها خبز أو عطر أو شرائط شعر ملونة !

■ ٣ ■

الأم مازالت تبيع الإبن وراء الإبن مقابل بعض الخبز واللص مازال يعيش فى كهف يحرسه تنين .

اللص مازال يمد ويسرق أقوات الجوعى .

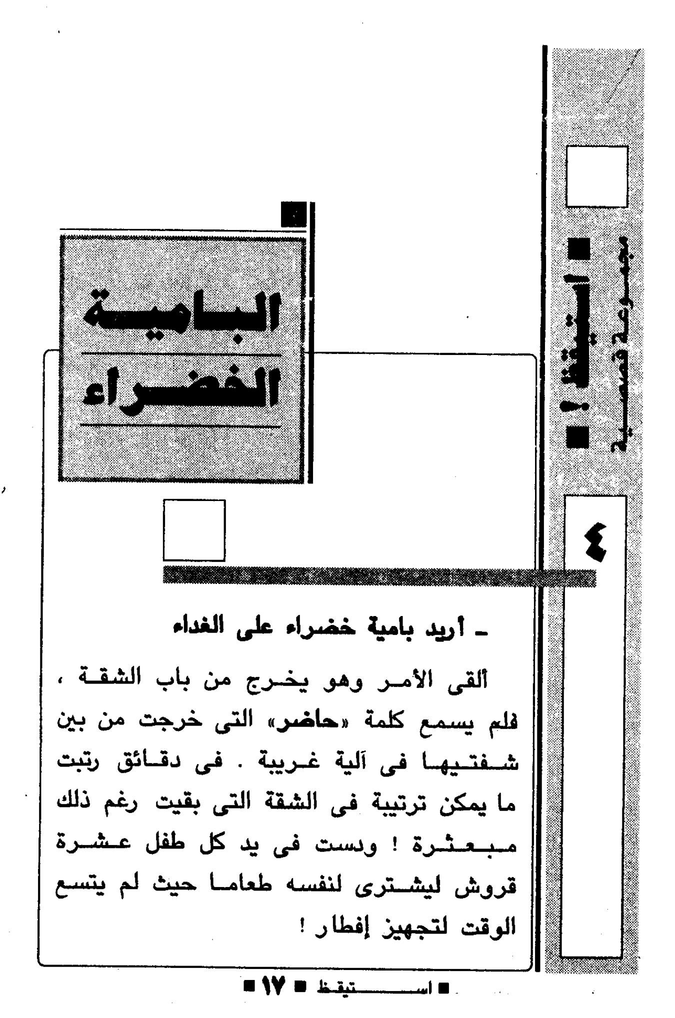
وبئر الذهب يصب فى قصر الحاكم .

■ ٤ ■

فى أحــد الأيام .. ظهـر الحــاكم من إحــدى طاقـات السور.

يا للهول .. الحاكم لص .. يسكن فى كـهف مهجور .. ويمد اليد .. يصطاد الخبز من أفواه الجوعى !!

مــايو ١٩٩٢



٤

البامية الخضراء

ـ أريد بامية خضراء على الغداء

ألقى الأمر وهو يخرج من باب الشقة ، فلم يسمع كلمة «حاضر» التى خرجت من بين شفتيها فى آلية غريبة . فى دقائق رتبت ما يمكن ترتيبة فى الشقة التى بقيت رغم ذلك مبعثرة ! ودست فى يد كل طفل عشرة قروش ليشترى لنفسه طعاما حيث لم يتسع الوقت لتجهيز إفطار !

صرخت فى الصغيرة

- « **العريس لا ينتظر خلف الباب** » حين طلبت منها أن تصفف لها شعرها !

هرولت خلف الصغار لتلحق بعملها . رغم حرصها اليومى على عدم التأخر إلا أنها لم تصل يوما فى الموعد . كان التلاميذ فى فصولهم .. هرولت إلى فصلها بعد أن سمعت كلمات الصباح العنيفة التى يستقبلها بها الناظر كل يوم . دخلت الفصل فارتمت على المقعد تلهث قبل أن تتمكن من إلقاء تحية الصباح . فلما التقطت أنفاسها لم تلقها أيضا .

فى الحصص الثلاث الأول لم تبارح فصول المدرسة ، لعنة الله على المدرسة وعلى الناظر وعلى التلاميذ ، هل سينتظر السوق حتى الحادية عشرة ؟ وهؤلاء البُلَهاء الجالسون أمامها هل ستفيدهم عطلتها وضياع فرصتها ؟

وهل سينصلح حالهم حين تتهم كل يوم أنها زوجة فاشلة ؟

هكذا كانت تفكر .

بين الحصة الثالثة والرابعة جرت إلى الناظر ترجوه أن يسمح لها بالخروج لتطمئن على أمها المريضة (جدا) .

- **ربع ساعة فقط يا حضرة الناظر .**

حضرة الناظرة يعمل فى هذا المجال منذ نيف وثلاثين عاما . رد بجفاء :

ـ بعد حصصك .

خرجت تترجرج فى فستانها المجعد وتدعو عليه فى سرها .

الحصة الرابعة كانت مباراة فى الملاكمة حلبتها الفصل الدراسى . مُتَحَدُّوها الصغار يسقطون الواحد تلو الآخر أمامها دون تحد !! إلا إذا كان تحديهم لها هو مجرد وجودهم فى فصلهم فى هذا الوقت

ـ أخرجوا الواجب ..

بُهِتَ الصغار .. إنها أبدا لم تطلب منهم مراجعة الواجب لسبب بسيط هو أنها لا تكلفهم بواجب ! لم يُخْرِجْ الصغار شيئا ..

ـ قوموا فِزُّوا ..

فزّ الصغار .. من خلف باب الفصل أخرجت خيرزانة فتية مرنة . مد البائس الأول كفيه الصغيرتين لتلهبهما بلسعات خيرزانتها الحراقة . حين وصلت لسابع البؤساء كانت قد اندمجت . ألقت خيرزانتها وكوّرت قبضتها وصارت تدق الصغار على ظهورهم وأكتافهم ، وتختتم كل مباراة بصفعة جبارة على الوجه .

الأطفال تكوموا فى ركن الفصل يتدافعون للخلف .. كل منهم يحاول الاختباء خلف زملائه .. وهى مازالت فى جنونها .. وبين الحين والحين كانت تقول شيئا عن البامية

وزوجها الذى لا يتسامح وأطفالها الذين طالما أغلقت عليهم الشقة لتخرج لعملها !

ارتمت الصغيرة فجأة تحت قدميها بتأثير ضربة قاضية من قبضتها المكَوَّرَة . ركلتها صارخة .

- قومى فزّى ..

لم تفز الصغيرة .. ركلتها ثانية .. لكن الصغيرة ظلت ساكنة دون حراك .. ارتكزت على ركبتيها تتفحصها .. مدت يدها تنهضها لكنها كانت جسداً بلا حياة !

- يا مصيبتى

قالتها بصوت خافت وهى تكتم صوتها بكفها المرتعش .

- يا مصيبتى

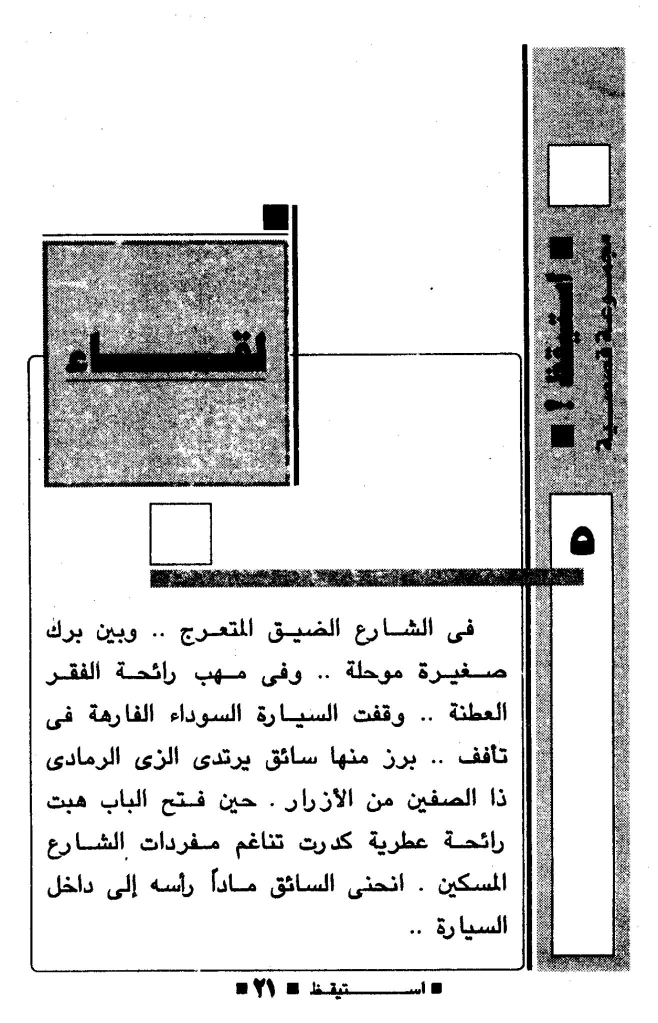
رددتها بصوت أخذ يرتفع شيئا فشيئا حتى صار صراخا .

ساعدها كورال بكاء الصغار الفزعين فى سرعة وصول الغوث من باقى أرجاء المدرسة .

ماتت الصغيرة .. بسبب خيبة التلاميذ ..

(هكذا قالت المعلمة) !

ديسمبر ١٩٩٠



لقاء

فى الشارع الضيق المتعرج .. وبين برك صغيرة موحلة .. وفى مهب رائحة الفقر العطنة .. وقفت السيارة السوداء الفارهة فى تأفف .. برز منها سائق يرتدى الزى الرمادى ذا الصفين من الأزرار . حين فتح الباب هبت رائحة عطرية كدرت تناغم مفردات الشارع المسكين . انحنى السائق ماداً رأسه إلى داخل السيارة ..

« لن أتأخـر يا سيـدى .. وأرجـوك لا تفتح النافـذة .. أرجوك يا سيدى »

أومأ **الصغير** بعدم اكتراث وعيناه مـشغولتان باستطلاع أشكال البـيـوت الغريبـة .. المائلة والبـارزة والمشـقوقـة .. يخفض رأسه ويثنى جذعه حتى يرى سطح أحد البيوت ..

أدهشته الدجاجات الواقـفات على بقايا سوره المتداعى .. وصله رغم الزجـاج المغلق صـوت امرأة تصـرخ وتزمجـر متنقلة على أوتار صوتـها كأمهر العازفين .. مـهددة امرأة أخرى تطل من شرفة خشبـية .. تعاطف مع امرأة الشرفة الطيـبة .. وصفق بيـديه صائحـا فى ظفر لما ألـبست ذات الصوت المهدد إناءً مليئا بالقمامة والماء القذر فى رأسها .

عينان سوداوان هيّـابتان ترقبانه عـبر الزجاج .. وكفان صغيرتان قذرتان تلتصـقان بزجاج السيارة اللامع .. ارتعد لما رأى المتلصص الصغير .. الأعين البريئة تتعامل .. تركز وتفـحص .. وبعـد برهة أرسلت أولى إشـارات التفـاهم .. بسمة بريئة من الوجه القذر الملتصق بزجاج السيارة ..

مد طفل السـيارة كفيه .. وضـعهما فى الجهـة الداخلية من الزجاج ليقابلا الكفين الصغيرتين .. اتسعت البسمتان ..

التصق رأس ذو شعر مصفف بالزجاج .. فنطح الزجاج رأس ذو شعر مغبر مشعث ..

وانبعث للبسمات صوت ..

امتـدت شفتـان حمراوان ترسـلان قبلة عبـر الزجاج .. فتلقتهما شفتان سمراوان أحدثتا تلوثا فى الزجاج ..

وعلت الضحكات ..

انفتح الزجاج قليلا ..

- اسمى محمد

*** واسمى أيضا محمد ..**

إزداد نزول زجاج السيارة ..

- هل تلعب يا محمد ؟

* ألعب ماذا ؟

- عندى حصان !

جرى الصـغيـر إلى باب متكسر وأحـضر عـصا طويلة مربوط بها مزق من القماش ..

- هذا حصانى ..

* رائع .. شعره طويل وجميل !

ركب الحصان .. وقـفز .. وقفز .. وهو يحـدث بصوته صهيلا .. ودبيبا ..

* هل أركب معك ؟

- إنزل ..

ونزل

وركب الحصـان .. وتعالت صـيحـاته وهو يشعـر بأنه يخلق الحياة للـعبة الصماء .. راح وجـاء خائضا فى وحل الشـارع .. شعـر بنفـسه فـارسـا يتحـكم فى حصـانه .. لا يخاف السقوط .. ولا تقصر رجلاه عن متكأيهما ..

* ماذا عندك أيضا من اللعب ؟

ـ هل تلعب السيجة ؟

* نعم .. علمنى ..

ـ هيا اجمع الحصى ..

اليـدان القذرتان تجـمعان فى نـشاط ودربة .. واليدان البضتان الناعمتان تقلدان .

جلس فى تلقـائية علـى الأرض فجلس رفـيقـه .. امتـد أصـبع أسـمر مـدبب نحـو التـراب يخطط ويقـسم الملعب الصغير ..

تفاهم المحـمدان .. كلاهمـا لم ير فى رفيقه نقـصا أو زيادة .

● ● ●

صرخ السائق « **امش يا شوارعى يا متشرد** »

قفز المحمدان ..

ارتفع الكف القاسى وهوى على خد أحدهما ..

بكى وتساقطت دموعه تغسل وجهه الملوث ..

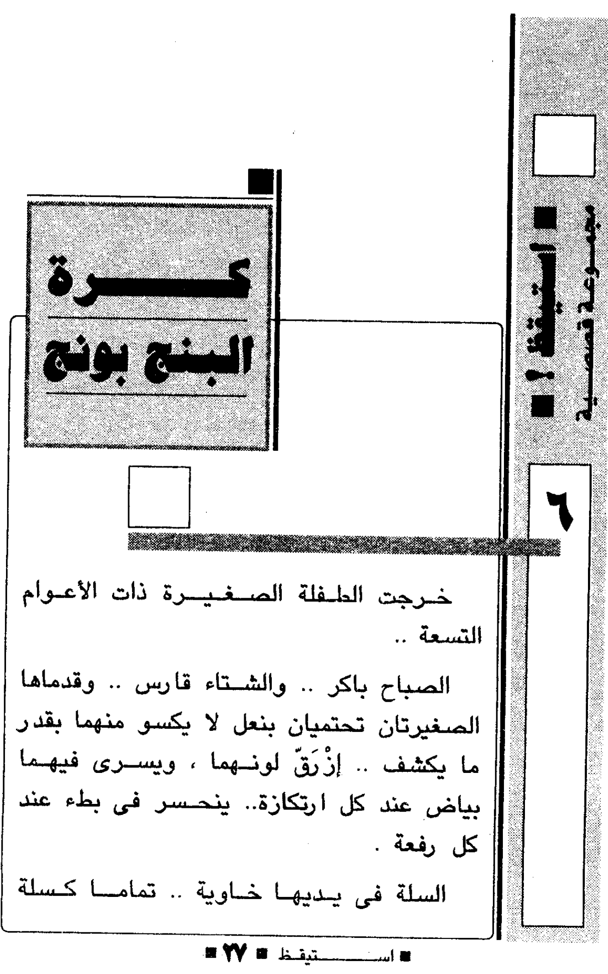
ودلف الآخر إلى محبسه المتحرك ..

وجرت السيارة ..

الكف الصغير بداخلها يلوح ..

والوجه البائس فى الخارج تغسله الدموع !

نوفمـــبر ١٩٩٤



كرة البنج بونج

خرجت الطفلة الصغيرة ذات الأعوام التسعة ..

الصباح باكر .. والشتاء قارس .. وقدماها الصغيرتان تحتميان بنعل لا يكسو منهما بقدر ما يكشف .. إزْرَقّ لونهما ، ويسرى فيهما بياض عند كل ارتكازة.. ينحسر فى بطء عند كل رفعة .

السلة فى يديها خاوية .. تماما كسلة

أحلامهـا وأمانيها .. كل مـا فى ذهنها أن تعود بها مـليئة قبل الموعـد المحدد للعودة فهـى تعرف تماما عقـابها حين تتأخـر .. وحين تطل طفولتـها مطالبة بشـىء من اللهو فى الطريق !

الأطفـال يمرون بجانبـهـا.. تلتفت أحـيانـا لتتـأمل طفلة تحمل على ظهرها حقيبة وتضع فى شعرها شريطا ملونا ! وأحيـانا أخرى .. تنسى خـطواتُها السلة الفـارغة وتتـمهل أمـام مـحل اللعب .. وتمر لحظات تـفـاضل فـيـهـا بين المعروضات .. وحتما لا تصل لقرار قبل أن تتذكر سلتها .. فتجرى لتعوض ما ضاع من وقت !

خبرتها فائقة فى انتـقاء الخضراوات .. ويداها المدربتان تعملان بسـرعة مذهلة .. وذهنها الصغيـر .. يحسب ويعد ويطرح ويجمع .. وشيئا فشيئا تمتلئ السلة .. وتطل منها الخـضراوات هاربة من الـزحام ! والذراعـان الصـغيـرتان تريح كل منهما الأخرى فى حـمل السلة .. وينحرف العود الصـغيـر يمنة ويسرة بفـعل ثقلهـا .. ويكثر الوقـوف فى رحلة العـودة .. لالتقاط الأنفـاس .. وتكثر مـعه الفـرصة لتأمل المعـروضات الجـذابة .. تأمل بارد حبـيس .. ملفوف بشـىء من بلاهة تطل من العـينين الصغيـرتين عندما تريان شيئا خاصا بالأطفال !

الخطوات حثيثة والمنزل يقـترب .. ونصف جنيه ادخرته

على مدى أيام يختبئ فى جيبها ساكنا !

وها هى المنضدة الخضراء تلوح من بعيد .. والأطفال يضربون الكرة البيضاء الصغيرة بمضاربهم الخشبية .. كأنهم يعذبونها .. ثم ينتظرونها ليعيدوا طردها.. وكأن سعادتهم لا تتم إلا بعذابها .. وسيادتهم لا تكتمل إلا بإهانتها ! تعجبت لمتانتها رغم مظهرها الضعيف ! تخيلت للحظة أن الكرة البيضاء الصغيرة تعصب رأسها بمنديل وتحمل سلة مليئة بالخضراوات !

نسيت ثقل سلتها حين رأت المنضدة الخضراء .. ابتسمت فأطلت طفولتها .. نضح بها الوجه البرئ .. حاولت أن تجرى بقدر ما سمحت به سلتها المليئة .. ثم وقفت تتابع فى شغف .

تذكرت أنها يجب أن تمنح هذا الجالس نقودها ليسمح لها بضرب الكرة ! أعطتها له وعيناها مشدودتان للكرة البيضاء المسكينة !

وجاء دورها.. تطوع أحد الأطفال للعب معها .. ظنت أنه شهم وظن أنها كريمة .. **والحقيقة أنهما طفلان !**

مضربها يضرب الكرة كيفما اتفق .. والمتابعون يضحكون .. وشريك اللعبة ساخط .. وهى تقفز وكأن حمى السعادة قد أصابتها .. وضحكاتها تعلو وتنقطع فى انفعال صارخ ! لكن تلك الكرة العنيدة لا تستجيب لها كما

كانت تستجيب للآخرين ، إنها تتمرد .. تفر .. وتسقط .. وتقفز ! **شعرت وكأن الكرة ترفض ضرباتها.. وأن للضرب أناسه !**

«يبدو أنني لا أعرف اللعبة .. لا أعرف كيف أضرب الكرة ولكن سيدتى .. سيدتى ؟!! »

ألقت مضربها وحملت سلتها وجرت ..

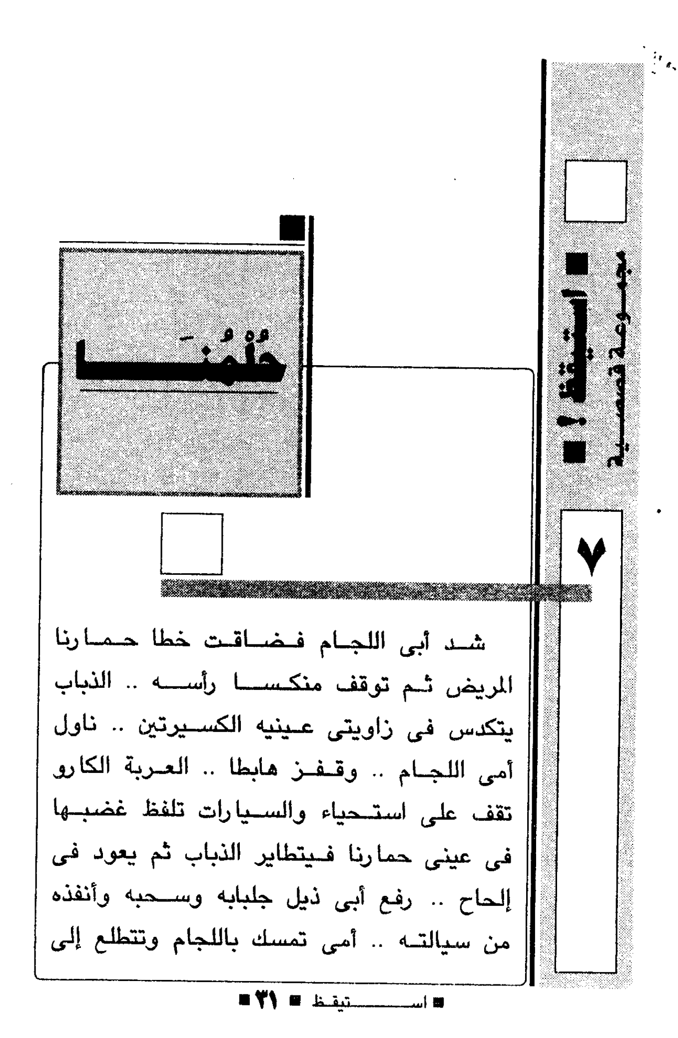
لم ترح يدها أثناء الطريق .. لم تتأمل المحلات والمارة ..

ودخلت .. مذعورة الفؤاد .. مرتبكة الخطى ..

● ● ●

على بساط متآكل فى ركن المطبخ الرطب .. جلست تبكى .. **فقد أدركت أن سيدتها تعرف اللعبة .. وتعرف كيف تضرب الكرة ؟!**

فبراير ١٩٩٢



حلمُنا

شد أبى اللجام فضاقت خطا حمارنا المريض ثم توقف منكسا رأسه .. الذباب يتكدس فى زاويتى عينيه الكسيرتين .. ناول أمى اللجام .. وقفز هابطا .. العربة الكارو تقف على استحياء والسيارات تلفظ غضبها فى عينى حمارنا فيتطاير الذباب ثم يعود فى إلحاح .. رفع أبى ذيل جلبابه وسحبه وأنفذه من سيالته .. أمى تمسك باللجام وتتطلع إلى

أبى فى صمت .. انحنى أبى إلى بقـايا سور متهـدم .. مد يديه منقبا .. قوالب الطوب متكسـرة .. عيناى تبحثان عن طوبة كامـلة .. استكنت مـتكئا إلى فخـذ أمى .. فكرت أن أهبط لأحـمل بعض الطوب لكنـى لم أفعل .. فى مـؤخـرة العربة تراصت بعض قوالب سليمة ..

أجابتنى أمى : أننا سنعمل مصطبـة أمام الدار ونغطيها بالطين والتبن .. وسنزرع شجرة ليمون .. تمطيـت مبتسما شـاداً ركبـتىّ .. فـاردا مشـطى قدمى .. تخـيلت جلسـات المساء المعـطرة بزهر الليمـون .. وأكواب الشاى تتـربع فى وسطنا .. فوق المصطبة ..

أجابتنى أمى .. «طبعـا يوجد طوب جديد وسليم .. لكن لابد وأن نشتريه ..»

قلت لنفسى : مادمنا سنغطيه بالطين .. يتساوى السليم والمكسور .

فى وسط العربة وضـع أبى أنصاف القوالب .. وأثلاثها.. وأرباعها .

فى النهـار سـأجـلس مع الرفـاق على المصطبـة تـظللنا فروع شـجرة الليـمون .. سيـقطف الجيـران ليمـونها أولا بأول .. مثل العنبة التى بجوار الحظيرة خلف الدار .

« لن أسمح لأحد أن يأخذ من ليمونها يا أبى »

ألقى أبى ما فى يده على العربة .. مسح جبينه اللامع بكمه .. ابتسم قائلا ..

« نزرعها إذن تحت السرير ! »

« لا يا أبى .. تحت السرير ستكون قصيرة »

« إذن دعها تكبر .. هل كفت شجرة العنب عن الإثمار لما أخذ الناس منها ؟ »

« كلا يا أبى .. تورق وتثمر »

« لنا ولغيرنا ؟ »

ابتسمت .. تمطيت فاردا ذراعى وساقى .. النعاس يحوم حولى .. أضع رأسى على فخذ أمى .. فتحك بأناملها فروة رأسى .. تنعشنى الفكرة .. أعتدل جالسا ..

« أبى .. سنرص الطوب مائلا حول شجرة الليمون »

« سنرصه ويفيض .. سأصنع لك مصطبة صغيرة .. لك وحدك تحت الشجرة »

وقفت مندهشا .. « والنبى يابا ؟ »

قفزت إلى الأرض .. رفعت قطع الطوب مع أبى ..

« إنزلى يا مه »

« حين يزورنا خالك فى العيد .. سنجلسه على المصطبة »

« لماذا لا نشترى طاولة يا أبى ؟ »

أصــوات زهر الطاولة .. وخـبط قـواشـيطهـا .. وعـبق الليمون .. وضحكات خالى .. تنعشنى

« لماذا لا نبدأ فى العـمل اليوم يا أبى .. مـازالت الدنيا نهارا ؟ »

ترجـتـه أمى وهى تحـمل كتلـة متـشـابكة من قـوالب الطوب ..

سيساعدنا الجيران ..

وسنسهر حتى نتم العمل ..

« حين أذهب للمــدرســة .. ســأذاكـر تحت الليـمـونة يا أبى »

● ● ●

جذب أبى ذيل جلبابه خارج سيالته .. أحكم طاقيته على رأســه .. عـلى العـربة تربـعت أمى ووقـفت إلى جــوارها متحمسا .. أستعجل أبى كى نبدأ المهمة اللذيذة ..

زعقت السيارة السوداء اللامعة .. نزل منها رجل بدين ثائر .. صاح

« يالصوص !! »

تسمر أبى فى مكانه ..

« أفرغ ما فى العربة يا حرامى »

امتلأت عيناى بالدموع ..

تقدم الرجل البدين نحو أبى الذى يبتسم فى انكسار ..

« قلت لك أفــرغ العـربة .. تسـرقــون كل شئ ؟ كل شئ ؟ حتى الطوب المتكسر ؟ »

همَّ أبى أن يقول شـيئا .. ازداد صيـاح البدين وازددت ألماً لابتســامة أبى .. انهمـرت دموعى .. بدأت ألقى الطوب إلى الأرض ..

« إرم معى يا أمه .. إرم »

ورمت أمى ..

وصعد أبى للعربة ..

أخذنا نرمى جميعا ..

ولما ســار الحمــار .. سألت نفـسى **« هل سيـزرع أبى شجرة الليمون ؟ »**

مــارس ١٩٩٧



زارع الرمل

تمر الليالى .. وتنصرم الأصبحة ..

آلاف الأفدنة أمامى .. صفراء .. لا تنجب إلا شوكا .. ماذا يعنى أن نموت من أجل تلك الرمال ؟ .. لو أنها تنجب عيدانا خضرا ! الأرض عرض .. لكن أى أرض ؟ أرضنا السوداء الولادة أم تلك الصفراء العاقر ؟ آه يا أرضى الحبيبة .. أتلهف لرائحة عيدانك الخضراء وللمس طينك الولاد .

●●●

أدهشنى كلام الضــابط .. فعدت أسأله ونحن جـالسون على شاطئ القناة .. يتطلع إلينا قمر سيناء الصافى ..

ـ أإذا مر أحد فى حقلى .. وأمـضى به وقتا يجئ يوم ويقول لى « هذا الحقل ملكى ؟ »

ابتسم الضابط

* على رِسْلك يافلاح .. الأمر أعقد

ـ ولو يا فندم .. لكل أناس أمـلاكهم .. وأرض غـيرى ليست أرضى .. حتى لو كنت قـد مررت بها .. وأكلت من ثمرها .. بل حتى لو أقمت فيها ..

* السؤال الآن لمن كانت هذه الأرض منذ البداية ؟

ـ عليك نور يا فندم .. لمن ؟

* لنا يا على ..

● ● ●

ضـربت أمى على صـدرها لما علمت أنك ياسـيناء أرض صفراء لا تنجبين العيدان الخضر .. وصاحت .

ـ يروح الشباب من أجل أرض بور ؟

لكنها كـادت تلتهم جارتنا التى اسـتولت على « الكوز » المخـروم الملقى فـوق سطح دارنـا .. والذى تظن أمى أنه من الممكن إصلاحه .. همست إليها .

- ما هو إلا « كوز » مخروم يا أمى

صاحت بتحَدٍ وهى تزيحنى عن طريقها

- حقى ! إذا سكتُ على ضياع المخروم .. سيضيع السليم يا عبيط !

● ● ●

لو أن فيك عيدانا خضراء يا سيناء .. قمرك فقط مثل قمر حقلى .. لكنك لست مثله .. مريضة أنت بداء لا أعرفه.. شاحبه .. كئيبة .. تركتِ ثوبك الرملى للرياح تذروه هنا وهناك .. تتبدل ثيابك الرملية دون رغبة منك .. فتعلو هنا وتهبط هناك .. وأنت ملقاة على البر الآخر .. تزداد صفرة رمالك .. وتتكاثف أشواك كآبتك .. أتُراكِ يئستِ من الغوث فرقدت فى انتظار النهاية ؟ لكن الزمنَ لا يبخل عليك بهبة ريح شرقية .. فتصحو رمالك .. تتكوم فى كثيب طويل أمامى .. تبرق حباتها .. تضئ وتنطفئ فى غمزات بعيونها الذهبية .. تهمس لى :

- حية أنا فى انتظارك .. لا يغرنك تماوتى !

أفلا تستطيع حبات رمالك الغمازة الهامسة أن تنجب عيدانا خضراء ؟

● ● ●

وتطأ قدماى رمالك الذهبية .. أصيح مهللا .. أحمل

فوق كتـفى مدفعـا كان ثقيلا قـبل هذه اللحظة .. أطير به وسط الصــيـاح والوغى .. أسمع ترحـيب رمــالك .. أزرع الراية ..

أتانى صوت ضابطى القائد يصيح .

ـ مبروك يا على

لم أتبينه فى غبار الرمــال ودخان المدافع .. لكنى عثرت عليه بعد ذلك جريحا .. غارقا فى دماه .. حملته واستترت وإياه .

* سلامتك يا فندم .

ـ هيا .. واصل يا على .

* وسيادتك يا فندم ؟

ـ سأسقى لك تلك البقعة لتزرعها يا فلاح ..

● ● ●

« الكوز المخروم حقك يا امه »

مـدفعى على كـتفى يذب الآفـات عن أرضـى .. وأرضـى تتـسـع .. والآفـات تتفـرق وتتـسـاقط .. والساقـيـة تدور فتسكب الدماء ..

لكن مالأرضى قد توقفت عن الاتساع ؟ وما تلك البؤرة الشـيطانية فى هذا الجـدار الملعـون التى تصب لهيـبهـا ؟

مالها تحصد بنيرانها الجند وتكومهم كحزم القمح الذهبية .

علا صوتى

« اتسعى يا أرضى »

تسابقت قدماى

الاندفاع نحو الموت ليس رهيبا كما كنت أتصور ..

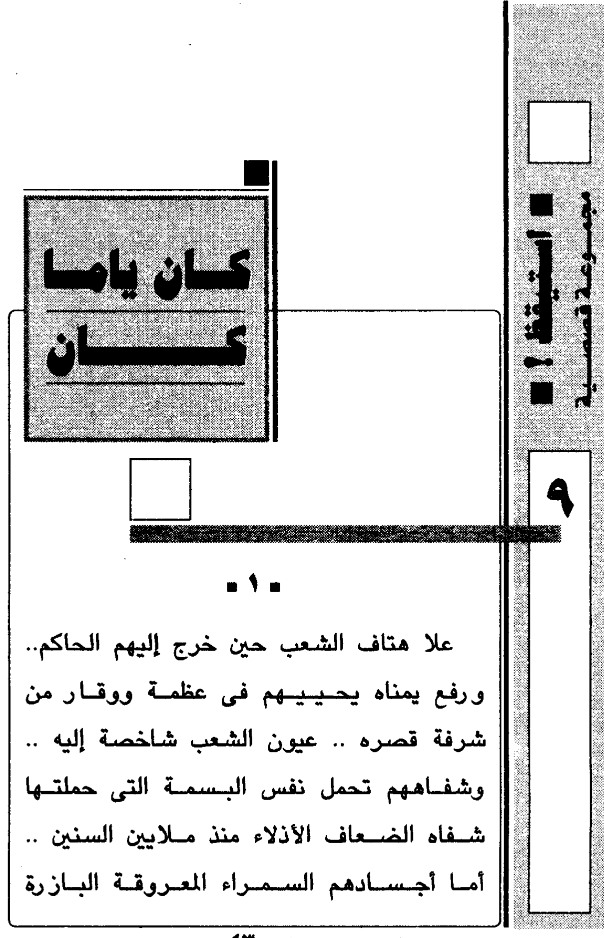
هلمى يا قدمى ..

اتسعى يا أرضى

سائل دافئ يتصبب من فمى .. يتدفق من صدرى .. لزوجة تغطى جسدى ..

الخرق أمامى .. داخل كوز أمى .. يصب الهلاك .. ألقيت بنفسى فيه .. أمتدت أمامى السهول الخضراء .. وحفيف العيدان المتمايسة يداعب أذن الهدوء .. والساقية تدور دافقة الماء اللجى .. وأنا مشمر جلبابى أرعى نبتات أرضى ..

اكتوبر ١٩٩٦



■ ١ ■

علا هتاف الشعب حين خرج إليهم الحاكم.. ورفع يمناه يحـيـيـهم فى عظمـة ووقـار من شرفة قصره .. عيون الشعب شاخصة إليه .. وشفـاهـهم تحمل نفس البـسمـة التى حملتـها شـفاه الضـعاف الأذلاء منذ مـلايين السنين .. أمـا أجـسـادهم السـمـراء المعـروقـة البـازرة

عظامـهـا.. فكأنمـا خـرجت لتـوها من مـتـحف البـشـرية المعذبة !

الحاكم سعيد بشـعبه المحب .. ينظر إلى وزرائه الثلاثة باحثـا فوق وجوههم عن آرائهم فـى تلك الشعبـية ! يلمح الوزراء نظرة الحاكم فـتفيض وجـوههم التى كانت صـماء بكمـاء بالرضـا والحـبـور ، وتسـيل من عـيـونهم نظرات الإعجاب اللزجة بحاكمهم المحبوب !

أفراد الشعب يلوحون ويقفزون .. وأحيانا يخرج صوت حـاد طـويل ـ كـأنه الـعـويل ـ يريد أن يـصل إلى أذنى الحـاكم .. الأيـادى ترتفع وتشـيـر .. والأعناق تسـتطيل وتنتـفخ عـروقـها .. والـوجوه يخـنقهـا الانفـعـال .. شئ ما يحاول النفاذ إلى ملكوت الحاكم .

يعـيد الحـاكم التطلع إلى وجـوه وزرائه فتـفيض مـرة أخـرى بالرضاء والحـبـور .. وتسيل من عـيـونهم نظرات الإعجاب اللزجة ! يهز الحاكم رأسه فى عظمة وكأنه يقول لشعبه .

ـ ليس عندى مانع من قبول حبكم !

ثم يستـدير فى أناة .. مُلَمْلِماً ومـعدلا ملابسـه الموشاة الفاخرة .. ويرفل داخلا قصره .

إسـتوى الحـاكم على عـرشـه ونظر إلى كـبيـر وزرائه قائلا:

ـ مازال شعبى عاريا يا وزيرى الأكبر !

* حرارة الجو يا مولاى .. نحن فى منطقة حارة وهم لا يحتملون الملابس !

ـ سبق أن أفهمتك يا وزيرى الأكبر أن ذلك المظهر أصبح غير لائق .

* نعم يا مولاى . أنتم دائما تبحثون عن صالح شعبكم . لكن أسمح لى أن أقول أنه من الصعب تعويد الشعب على غير ما ألفه .. وهو قد ألف العرى .. ونحن حسب توجيهاتكم لا نريد إجباره ومصادرة حريته .. الأمر يحتاج وقتا وصبرا .

ـ وقت وصبر ؟ ويظل شعبى عاريا ؟ صرت لا أحتمل منظر أجسادهم الجافة الهزيلة . قل لى يا وزير الغذاء : لماذا يبدو شعبى جائعا ؟

ابتسم وزير الغذاء ابتسامة دسمة .. وتدحرج نحو الحاكم .. وقال فى أنفاس لاهثة :

* مولاى .. إنها الصحة بعينها

نظر الحاكم إلى وزرائه الثلاثة وقال :

ـ إذن أنتم لا تتمتعون بالصحة .

* بالفعل يا مولاى !

قالوها فـى صوت واحد ممزوج بالأسى والانـكسار ثم قال كبير الوزراء :

* الشعب يـأخذ حاجـته وأكـثر من الغـذاء لكن فرص العـمل التى وفـرناها له بتـوجـيـهات سـمـوكم والحـدائق والملاعب التى أمـرتم بانـشائـهـا تجـعله يعـمل ويتـريض فيـستـهلك غذاءه ويقوى جـسده .. وتبـتعد عنـه البدانة .. وتبقى له الصحة الوافرة !

- ولماذا لا تحافظون على صحتكم أنتم أيضا ؟

انبرى وزير العمل قائلا :

* متى يا مـولاى ؟ إن وقتنا كله نقـضيـه فى تدبير أمور شعبنا العظيم .

ولهث وزير الغذاء :

كلنا فداء حاكمنا وشعبه .

■ ٢ ■

« الملابس يا مولانا الحاكم »

شق الصـوت المُعْوِل صـفوف الجمـاهير وذرات الـهواء ووصل إلى أذنى الحاكم فى شـرفته . التفت الحـاكم نحو وزرائه وفى عـينيـه سـؤال . لـم تسل نظرات الإعـجـاب اللزجـة من عـيـون الوزراء وإنما لاح القلق وعـربد فى

ملامحهم بوضوح وتحدٍ لم يستطيعوا له إخفاء !

أرهف الحاكم السمع لعل الصوت يأتيه . تأمل الحاكم وجوه شعبه فبدت له تعيسة شقية . لملم الحاكم ثيابه الموشاة ودخل قصره . لم يلحظ الهمس الذى دار بين وزرائه وهم يتبعونه إلى داخل القصر .

استوى الحاكم على عرشه ومن خلال وجه عابس قال لكبير وزرائه :

ـ مازال شعبى عاريا يا وزيرى الأكبر !

* مولاى ، نحن نحاول تدبر الأمر ، إنه ليس سهلا .

قالها الوزير الأكبر بصوت يرتفع ويخفت ويفح دون داع !

ـ ألم توزع عليهم الملابس التى جلبناها لهم من أفخر صنَّاع الملابس فى الممالك المجاورة ؟

رد الوزير الأكبر بصوت متغير :

* بلى يا مولاى . وزعناها ؟

ـ ولِمَ لَمْ يرتدوها ؟

تألقت عينا الوزير الأكبر بغتة :

* هذا ما كنت أحاول تدبره يا مولاى .

ـ ماذا ؟ هل رفضوا ارتداءها بعد أن أعلنتهم أن هذه مشيئتى ؟

أجـــاب الوزير فــى خـبـث وهو يرمق الحـــاكم بـنظرة فاحصة تخرج من عينين ضيقتين :

* للأسف يا مولاى . هذا ما حدث .

- أصــدر أمـرا فوريا بمـعاقـبـة كل من يظهـر عـاريا بالحبس والجلد . وأتنى حالا بهذا الأمر أختمه بخاتمى !

انصرف الوزراء .. وبقى الحاكم علي عرشـه مغضبا .. بل مندهشا .. وربما ساخطا فلماذا لا يطيعه الشعب ؟ لقد أنفق من خـزائنه لـيـوفر لـه كل سـبل الحـيـاة الكريمة : العمل ، الغـذاء ، الترفيه ، الكـساء .. لم يبخل على شعـبه بشئ .. أتلك مكافاة شعبـه له .. العصيان ؟ شئ غريب .. يخالف منطق الأمور ..

فـالإنسـان يطيع ويرضى مـن يحـبـه .. وهو يعلم أن شعبه يحبه .. رآهم بنفسه يحتشدون حول قصره ملوحين هاتفين .. **فلماذا يعصونه ؟**

فى قـاعـة مغـلقة .. اجـتـمع الوزراء الثـلاثة يتـدبرون الأمر ، فلابد أن تخرج أكياس الذهب من خزائنهم وتذهب إلى صناع الملابس .. لـن يسكت الحـاكم .. لابد أن تذهب أكـيـاس الذهب فى الطريق الذى أراده الحـاكم .. وإلى أن

تصل الملابس .. **لابد أن يمنع الحاكم من مشاهدة شعبه!**

■ ٣ ■

تسلل الحاكم ليلا من سور حديقته الفسيحة وخرج إلى أرض شعبه .. البيوت الصغيرة المتهدمة .. والأزقة الضيقة القذرة .. والروائح الكريهة .. والجو المقبض الكئيب .. كل ذلك أحس به وراه وهو يتجول فى أرض شعبه .. بحث الحاكم عن الحدائق .. عن الملاعب .. عن البيوت الرخامية ذوات الجنات .. لم يجد شيئا .. وحين رأى الطفل العارى ينبش الأرض .. ويخرج نباتا ذابلا كان مخبأ فى حفرة قذرة .. ويلتهمه فى نهم وهو يتلفت خشية أن يهجم عليه جائع آخر .. انفطر قلبه وقفل عائدا إلى قصره وهو يسأل نفسه :

ـ أهذا شعبى حقا أم أننى ضللت الطريق ؟ **وهل يضل حاكم الطريق إلى أرض شعبه ؟**

■ ٤ ■

اعتكف الحاكم أياما ثلاثة ثم أمر بمثول وزرائه بين يديه .

ـ سأخرج غدا وستصحبوننى لأتفقد حال شعبى ..

* نحن نخشى على حياتك يا مولاى ربما يؤذيك أحد الساخطين على ارتداء الملابس بسهم يصيبك وأنت فى شرفتك .

ـ لن أكون فى شرفتى . **سأكون فى أرض شعبى وأنتم معى .**

تلاقت الرؤوس الثلاثة تدبر الأمر . فاض بحر الشر بموجات الغدر . **ساروا بين الشعب يتحدثون عن ظلم الحاكم واستبداده .** عن خزائنه المليئة بالذهب وشعبه عار . عن قسوته علي شعبه الفقير . عن العهد الجميل الذى لن يلوح إلا بقتل الحاكم . لا سبيل سوى قتل الحاكم . أمتلأت النفوس بالثورة وأغرق فيضان الشر الجميع .. خرج الحاكم مع وزرائه مترجلين .. الوزراء لم يعد يفزعهم أن يكتشف الحاكم حقيقتهم .. فقد خرج من قصره ولن يعود إليه .. وسيقدر لهم الشعب تلك الخدمة التى قدموها له بإخراجهم الحاكم من قصره ليقضوا عليه ويشرق العهد الجميل ..

سار الموكب فى الطرقات الضيقة .. تغوص أقدام أفراده فى الوحل وتزكم أنوفهم روائح المرض .. الأعين تطل من شقوق الأبواب ومن خصاص النوافذ ترتقب اللحظة .. يخرج الأطفال .. يسيرون خلف الموكب .. يتبعهم آباؤهم ..

يتكاثر الناس .. خلف الموكب .. يتدافعون.. الحاكم ووزراؤه وسط الناس .. الشعب يتأمل حاكمه فى استطلاع وتحفز !

ضغط الناس يتزايد .. يتفرق موكب الحاكم ويصبح بمفرده وسط الشعب العارى . لا هتاف . لا تلويح . يسيرون جميعا ناظرين للحاكم فى موكب جنائزى .

يسقط الحاكم ..

تتفجر دماؤه ..

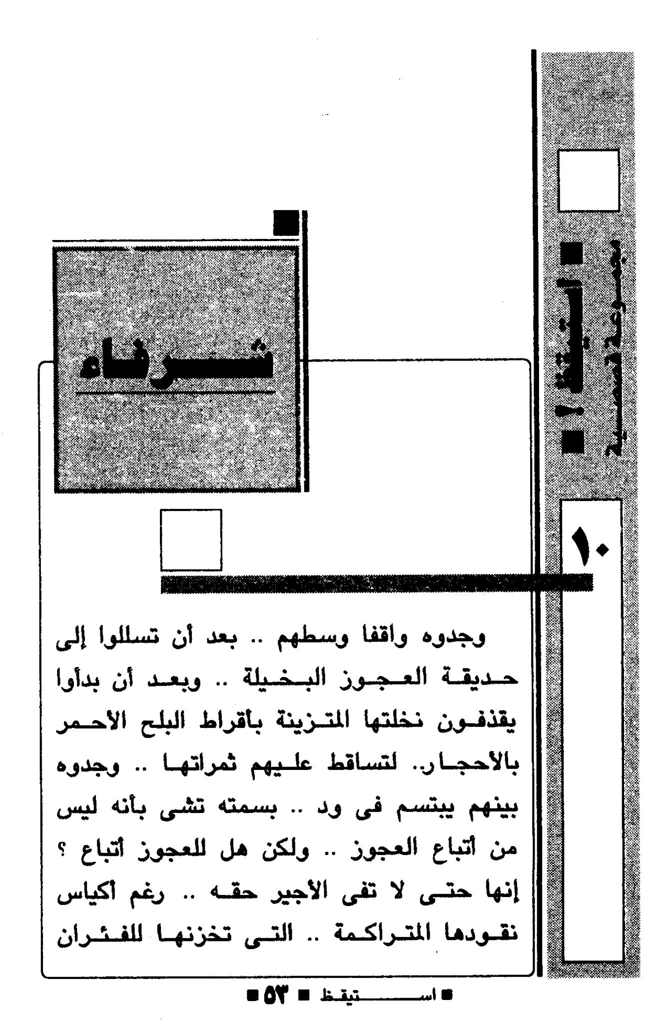
يموت الحاكم !

■ ٥ ■

قتل الحاكم .. منذ آلاف السنين ..

وبقى شعبه عاريا إلى اليوم !

ديسمبر ١٩٩٤



شرفاء

وجدوه واقفا وسطهم .. بعد أن تسللوا إلى حديقة العجوز البخيلة .. وبعد أن بدأوا يقذفون نخلتها المتزينة بأقراط البلح الأحمر بالأحجار.. لتساقط عليهم ثمراتها .. وجدوه بينهم يبتسم فى ود .. بسمته تشى بأنه ليس من أتباع العجوز .. ولكن هل للعجوز أتباع ؟ إنها حتى لا تفى الأجير حقه .. رغم أكياس نقودها المتراكمة .. التى تخزنها للفئران

والتـراب والصـدأ .. وتبخل علـى نفسـهـا بثـمرة طازجـة شـهية .. وتـفضل أن يوزن كل شىء وتحصل على ثمنه .. فمن ذا الذى يقبل أن يصبح تابعا لها ؟

وجدوه بينهم بعد أن تناثرت الفصوص الحلوة من قرط النخلة الأحـمر عـلى الأرض .. توقفت كـفـوفهم عن إلقـاء الأحجار .. وتجهمت وجوههم تتأمله ..

ـ هل أساعدكم ؟

سأل فى بساطة وود

اندفع تجـاهه شـاب تنتـفض عـروقه ويـتهـدج صـوته ويتصبب عرقه .. طوح ذراعه نحو الوجه المبتسم صائحا :

* من أنت ؟

بنفس الصوت السلس الودود أجاب :

ـ أنا ـ يا حارس البستان ـ لصّ ! مثلكم !

اندفع الجمـيع نحوه تنتـفض عروقهم وتـتطوح أذرعهم وتنطلق من أعينهم النظرات الحارقة :

* ماذا تظن ؟ هل نحن لصوص ؟ نحن أجَـرَاءُ العجوز الذين أكلت حـقـوقنـا .. نحن لا نسـرق .. لقـد ضـيـعت عرقنا .. نحن نسترد حقنا .. نحن شرفاء !

بنفس الهدوء والبساطة قال :

- إذن دعونى أسرق للشرفاء !

ظل الشـباب حـوله مـتوترين .. صـدورهم منتـفخـة . جباهم لامعة .. وشىء ما يضطرب بداخلهم .. ذو البسمة هادئ .. لا يبحث عن كلماته .. بل هى تنساب من شفتيه بثـقـة .. وحـين يتـكلم لا يـنتفض ولا يـتنـاثر الرذاذ من فمه ..

- هل تعلمون أنى أحسن من يطلع النخل ؟

همهمات ولكزات ونظرات ولا رد ..

- النخلة مـحـملة بالثـمـار .. لو أردتم أحضـرتهـا لكم جميعا !

صمت تام ..

- أنتم شـرفـاء .. لا تسـرقـون .. دعـونى أقـوم بتلك المهمة ..

سُمِعَ صوت متردد :

* لا شأن لنا بك

- فتح الله عـليك .. هكذا الشرفـاء .. أنا سأحضـر لكم البلح .. لو سمحتم لى ..

تجرأ صوت آخر :

* ومن يدرينا أنك سترد لنا حقنا ؟

ـ هذه النخلة .. وهـذا أنا سـأصـعـدها .. وهؤلاء أنتم حول النخلة .. فأين سأذهب منكم ؟

أمـام هذا المنطق الواضــح .. وبمرارة الحق الضــائع .. وبعد أن ضـبطهم وهم يقذفـون الثمار بالأحـجار ولم يش بهم .. بعـد كل هذا تهـاوى الشك .. **وتم الاتفـاق على أن يظل الشرفاء شرفاء !**

بمهارة قرد ربط نفسه للنخلة .. واندفع لأعلى سريعا.. سريعا

العـجـوز خلف زجـاج نافذتـها ترقـبـهم فى صـمت .. والشباب ترتفع ذقونهم شيئا فشيئا يتابعون صعود قاطف الحقوق الضائعة ..

* أنا أذكـر هذه الأشجار .. زرعـها أبى وجـدى وكنت معهما صغيرا .

* نعم .. لكـن الآباء والأجـداد كـانوا يخـرجـون من بساتينها جوعى

* أجبرتهم على المجىء مـرة ومرة بما لهم عندها من حقوق .. وإلا فلا حقوق .

* ونحن فعلنا كما فعلوا !

* إنها ترقبنا .. ولن ترد لنا مليما واحدا مادامت رأتنا.

* لا نريد .. سنأخذ حقنا بأيدينا الآن ..

* لو خرجت لأفلقن رأسها .

* لن تخرج ستظل ترقبنا وينحرق قلبها على ثمارها .

ذو البسمة يرتفع فى عليائه !

ويرتفع فى ضمائرهم :

*** هذا اللص أفضل من العجوز .. على الأقل هو يرد الحقوق .**

* هل نعطيه بعضا من الثمار ؟

* لا .. لا .. لقد تطَوّعَ .. لم نطلب منه شيئا لنؤجره !

* يا أخى .. نكسر عينه ببعض الثمرات .. فلا يصبح شاهدا علينا فى يوم من الأيام .

* أنتم دائما تطمعون فينا الناس .. كونوا أشداء ولا تفرطوا .

● ● ●

تصببت الدماء من رؤوسهم ووجوههم لما وصل طالع النخلة إلى رأسها .. رماهم بأحجارهم التى تعلقت هناك .. كان يخرج من فتحة جلبابه أحجارا .. بل كان يقطف الأحجار من بين البلح .. تعددت أذرعه وكفوفه لسرعتها .. واختلطت دماؤهم بحبات قرط النخلة الحمراء المتناثرة

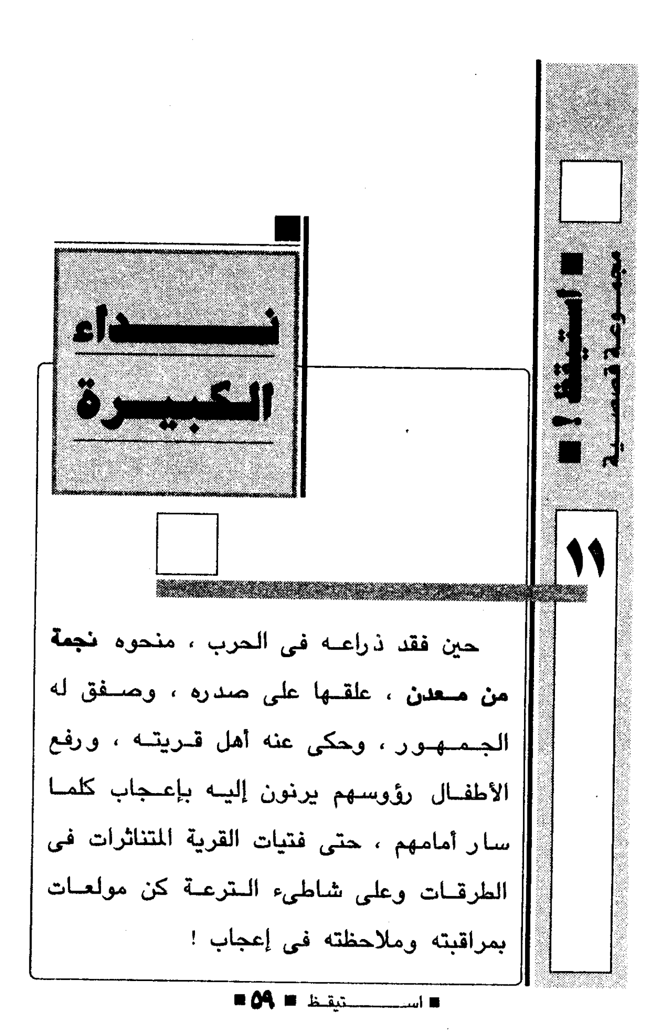
حولها .. وسابقوا الريح فرارا !

ولما نزل طالع النخلة محملا بثمرها الحلو ..

لوَّحَ للعجوز ضاحكا ..

فابتسمت فى خبث ..

ينـــاير ١٩٩٥



نداء الكبيرة

حين فقد ذراعه فى الحرب ، منحوه **نجمة من معدن** ، علقها على صدره ، وصفق له الجمهور ، وحكى عنه أهل قريته ، ورفع الأطفال رؤوسهم يرنون إليه بإعجاب كلما سار أمامهم ، حتى فتيات القرية المتناثرات فى الطرقات وعلى شاطىء الترعة كن مولعات بمراقبته وملاحظته فى إعجاب !

عقب الحرب .. عقب فقد الذراع .. كان متولى « سعيدا » !

● ● ●

تقدم « متولى » لخطبة « محاسن » ، إحدى الفتيات المعجبات اللاتى كن يرقبنه وهن يغسلن الأوانى على حافة الترعة .

كل شىء نصيب .. « محاسن » مازالت صغيرة على الزواج .

عاد « متولى » يهمس لنفسه :

ـ هل « محاسن » هى التى مازالت صغيرة على الزواج ؟ أم أننى أنا الذى صغرت ؟

أرغت أمه وأزبدت .. ورمت « محاسن » وأهلها بكل صفات قلة الأصل وانحطاط الأخلاق .. وتوصلت فى النهاية إلى أنها ليس لها فى الطيب نصيب ! « متولى » جالس يرنو إلى أمه فى صمت .. مدليا كُمًا خاليا .. وأبوه منكس الرأس .. معصور الفؤاد ..

رفض « متولى » عروض أمه .. وامتنع عن التقدم لخطبة أى فتاة أخرى .

لم تعد ذراعه المبتورة مثارا للإعجاب .. بل أسفرت عن حقيقتها **وباحت له باسمها الحقيقى .**

انحصرت حياة « متولى » بين الحقل والدار .. والخروج للسوق أحيانا ، يمناه المبتورة لا تمكنه من أداء الكثير .. لكنه لا يركن إلى التكوم كبقايا إنسان منتظرا التحلل .

عاتبه أبوه :

- تأخرت كثيرا يا « متولى » وأنا بحاجة إليك .

ابتسم « متولى » فى رضا

« رعاك الله يا أبى .. هل تظن أنى أصدق أنك تحتاجنى حقا ؟ » تمتم متولى لنفسه .

نهض فخلع جلبابه.. ظهرت بقايا عضده .. خاض فى حقله .. لم تفتر رغبة « متولى » فى العمل ولم يفت فى عزيمته أن أداءه لم يكن فى كفاءة الماضى ..

- سامحها الله « محاسن » .. أفقدته الرغبة فى الزواج !

* كل شىء نصيب يا أم « متولى »

قالها أبوه وهو ينظر إليه بطرف عينه فى إشفاق .. ويشير لأمه بيده أن تصمت !

- وبعد يا أبا « متولى » ؟ ألم يخلق الله غير « محاسن » ؟ الأم المغتاظة لا تعير انتباها لمشاعر الابن .. فابنها ليس أقل من أى شاب آخر .. بل هو أفضلهم جميعا

بما فيهم زوج « محاسن » ! ليس الأفضل لأنه بطل مضح .. بل لأنه ابنها .. وهى تراه كذلك !

* يا أم « متولى » كل شىء بأوان ..

ثم هامسا : « كفى عذابا »

الأم صارخة :

ـ عذاب ؟! أنا التى لا أريد له العذاب !

نهض الأب يائسا من صمت امرأته ..

ـ هيا يا « متولى » لنصلى العشاء .

قام « متولى » .. سرى مع أبيه إلى المسجد .. أثناء الطريق لم ينطق أى منهما حرفا .. أفكار .. وتساؤلات .. رغبات .. وتخيلات .. تموج وتتصارع فى ذهن « متولى » .

« ترى .. لماذا لم أزر حمودة الشحات حين مرض ؟ لماذا تخاذلت عن الإسراع إلى دار أبى السعود حين ارتفع فيها العويل ؟ ولماذا أتظاهر بعدم الانتباه لأتهرب من تحية البعض ؟ ربما بسبب ذراعى ؟ وهل تبادل التحية يحتاج إلى ذراعين اثنين ؟ يبدو أننى تغيرت ! وهل ظل الغير كما كانوا ؟ عندى ما يدعونى للتغير .. لكن ما الذى غيرهم ؟ هل الإنسان مجرد ذراع ؟ وحتى لو كان كذلك .. فمن أجل من ضاعت ؟ لا .. لابد أن أكون أكثر صدقا .. أنا لم

أتعمد التضحية .. لم أكن اختار .. كنت مدفوعا .. لم يكن هناك سوى طريق واحد يسير فيه الجميع ولا سبيل للرجوع .. لم أفعل هذا من أجل « محاسن » .. لم أضح بذراعى فى سبيل شخص .. كانت الحرب .. لماذا ألوم « محاسن » ؟ أكان من الممكن أن تختار العاجز وأمامها السليم المعافى ؟ ألا أستطيع نبذ اعتقاد البطولة واعتبر نفسى أصبتُ فى حادث ؟ »

بعد الصلاة .. وفى طريق العودة للدار سأل أباه :

ما رأيك فى أن نزور حمودة الشحات يا أبى ؟

تمدد « متولى » فى فراشه الخشن وهو يسأل نفسه :

- لماذا زرت حمودة ؟ لماذا أرعى شعور الآخرين وأحد لم يرع شعورى ؟

أخرج « متولى » الوسام اللامع من علبته المخملية .. قلبه بأطراف أصابعه حتى استوى على راحة يده .. جلس يتأمله .. تذكر الاحتفال .. وتهنئة القائد الأعلى .. صورته فى الجريدة .. (البطل المجند « متولى » أبو العلا حامل وسام « ... ») لقد ذهب كل شىء .. لم تبق إلا تلك القطعة المعدنية .. تذكره بكل ما ضاع .. تثير فيه الإحباط والخذلان .. لم لا تذهب هى الأخرى وتتركه بدون بطولة؟ تتركه شخصا عاديا لا ينتظر عرفانا ولا يتطلع لشكر ؟

خبطها بعنف وهو يضعهـا فى علبتها .. ثم ألقاها فوق ظهر الصوان المترب !

صارخ « متولى » بالحقيقة نفسه ..

ـ نعم .. أنا نادم علـى مـا راح منى .. لم أجْن غـيـر الخسارة ..

صـار أشد جـفـاء .. وأكـثر نفـورا .. لم يعـد يكتـفى بالصمت حين تجرى سيرة « مـحاسن » على لسان أمه .. بل أصبح يلقى بعض الكلمات العـدوانية اللاذعة .. لم يعد يبرر تقـصيره فى أداء الواجبـات الاجتماعيـة .. بل صرح بأن **« الناس لا يستحقون » !**

فـوجىء أهل الـبلدة بالطائرات تئـز فـوق رؤوسـهم .. وتلقى حـمـمـهـا فـوق دورهم .. عـلا الصـراخ .. تناثرت الدماء.. اختلط الأهالى بالجنود .. واختلطا معا بجند الأعداء وأعمل الجميع القتل !

« متولى » جاثم فى داره لا يخرج

ـ مالى بهم ؟ دافعت عنهم مرة فليدافعوا هم مرة .

تصل إلى أذنيـه صرخات .. ونداءات .. وأنات ، تـتدفق إلى مشـاعره وخـزات أليمة حين يسـمع صوتا مـألوفا .. أكثر من مرة نهض .. ثم قرفص ثانية

ـ أولاد الكلب .. ما الذى أتى بهم ثانية ؟

صوت طفل فزع يتسلل إلى قلبه فيلسعه

ينهض « متولى » ثم يقرفص ثانية

ـ فلينقذه أبوه !

* يا عم « متولى » !

هَبَّ « متولى » واقفا فتطوَّحَ كم جلبابه الخالى أماما وخلفا .

* يا عم « متولى » !!

ـ محروس ؟ محروس ابن محاسن ؟

تجمد « متولى » فى مكانه لحظات .. أيترك محروسا لمصيره ؟ أيخرج إليه ـ إلى ابن محاسن ـ مضحيا بذراعه الأخرى أو بساقه أو بعينه ؟

زار « متولى » بصوت كالرعد

ـ لا تخف يا محروس

جرى فاتحا باب داره مواجها الموت .. أمه تصرخ وراءه :

ـ ارجع يا « متولى »

فى الحارة الضيقة يقف محروس باكيا .. مفزوعا .. وعلى بعد أمتار منه يقف جندى قاسى الملامح .. مشهرا بندقيته .

اندفع « متولى » فى وثبة نمر .. رفع الصـــغير بذراعه الوحيدة .. وقبل أن يلج إلى داره .. **استقرت رصاصة فى أحشائه ..**

ارتمى فى فناء داره .. عويل أمه وبســملة أبيه وصراخ محروس يلفونه بجو مشحون بالحب ..

الرضا والسرور يكسوان وجه مـتولى .. عادت السعادة تشرق من عينيه الغاريتين ..

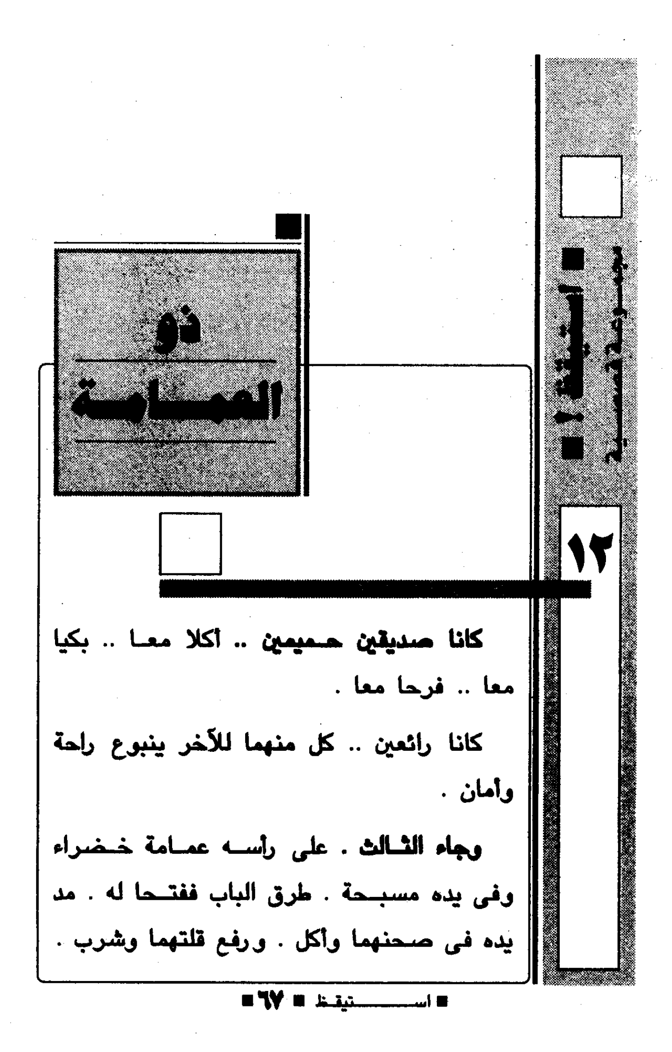
ـ ناداك ابن محاسن فقتلت نفسك يا ولدى

قالتها أمه بنغم العويل المطوط

ابتسم « متولى » الراضى عن نفسه وتمتم :

ـ بل نادتنى الكبيرة يا أمى ..

نوفمـــبر ١٩٩٢



ذو العمامة

كانا صديقين حميمين .. أكلا معا .. بكيا معا .. فرحا معا .

كانا رائعين .. كل منهما للآخر ينبوع راحة وأمان .

وجاء الثالث . على رأسه عمامة خضراء وفى يده مسبحة . طرق الباب ففتحا له . مد يده فى صحنهما وأكل . ورفع قلتهما وشرب .

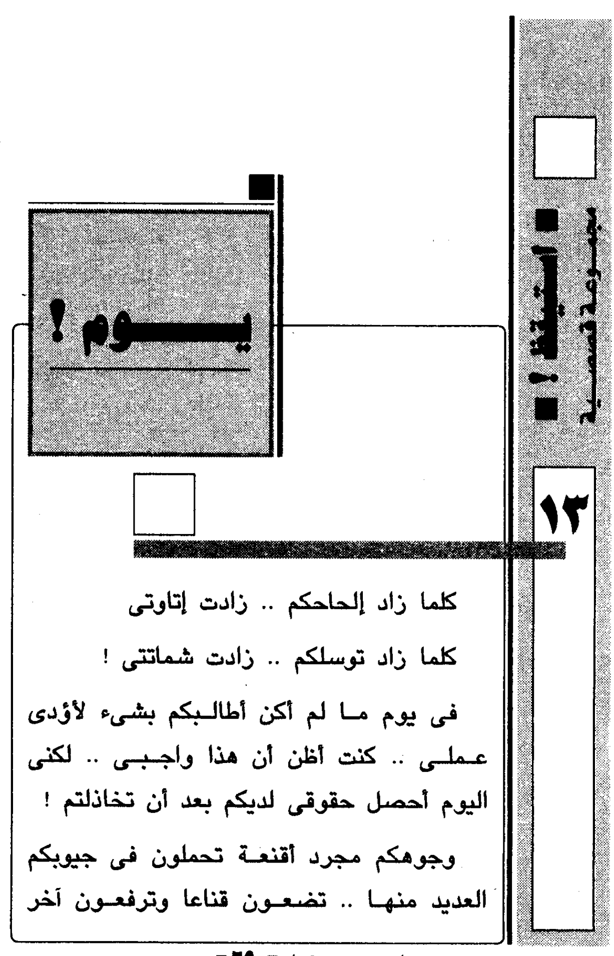
توالت الأيام وذو العمامة بينهما . لم يعد ضيفا . صاروا ثلاثة ينابيع للراحة . معا يعيشون ويرفرف كل منهما على صاحبيه بجناحين من عطف .

انتهز ذو العمامة غفلة صاحبيه . كشف طعامهما ونفث فيه السم . جاء موعد الطعام . أكلا ولم يأكل .

ولما ماتا .. رفع عمامته فظهرت قرونه . وألقى عباءته فبدا جسمه الشيطانى الأسود البشع . **وصارت مسبحته حربة مسنونة رفعها بكفه ذى المخالب وقهقه عاليا .**

نوفمبر ١٩٩٥

١٣



كلما زاد إلحاحكم .. زادت إتاوتى

كلما زاد توسلكم .. زادت شماتتى !

فى يوم مـا لم أكن أطالـبكم بشىء لأؤدى عـملـى .. كنت أظن أن هذا واجـبـى .. لكنى اليوم أحصل حقوقى لديكم بعد أن تخاذلتم !

وجوهكم مجرد أقنعـة تحملون فى جيوبكم العديد منهـا .. تضعـون قناعا وترفعـون آخر

فتضحكون أو تحبون أو تخيفون أو تسخرون ! لم أعد أرى فى وجوهكم لحما ودما .. لم أعد أرى إلا ورقا مرسوما .. زاهى الألوان .. أو باهت الألوان ..أو بدون ألوان .. حسب الظروف !

فى يوم ما رأيتكم .. طفت عليكم أوطفتم على .. كانت وجوهكم ماتزال تحيا .. والدم يجرى فى عروقكم .. كنتم تغضبون وتحبون وتخافون .. هل تذكرون ذلك العهد ؟ حين كانت جيوبكم خالية من الأقنعة ؟

ما كان أبشع موت الحياة فى وجوهكم .. حين هربت الدماء وتحجرت النظرات واصفرت الجلود .. رأيت هذا بعينى .. الوجوه الميتة عَلَتْ الأجساد الحية .. والأعين جامدة مفتوحة تُشِعُّ الموت وتشيعه

مددتم أيديكم إلى جيوبكم .. أخرجتم أقنعة .. وضعتموها فوق وجوهكم .. ثم تغير المنظر .. وتحولت الدنيا إلى خشبة مسرح تدب عليها الحياة الكاذبة .. وجوه العرائس الملونة تبكى أو تضحك حسب أدوارها .. والخيوط الملفوفة حول أصابع البلادة والتنطع تحركها !

و .. يـوم

لم أكن يوما فتاة باهرة .. كنت واحدة من ملايين العاديات لا ألفت الأنظار ولا أستحوذ على الإعجاب .. أستعد للذهاب لعملى صباحا .. أفتح دولاب ملابسى فلا أحتار .. ارتدى أحد الثوبين وأهرول لألحق بالحافلة .. أتعاطف مع أصحاب المصالح الدائخين وراءها .. « فالناس غلابة » .. أسرع للحاق بالحافلة لأخفف عن أمى بعض أعبائها المنزلية .

اليوم الذى ماتت فيه وجوهكم كان يوما عاديا .. ركبت نفس الحافلة .. وذهبت إلى نفس العمل .. وخرجت فى نفس الموعد .

انتظرت الحافلة والوجوه حولى مألوفة .

الرجل ذو النظارة الملحومة .. الشاب ذو البلوفر اللبنى .. الفتاة الأنيقة ذات الأثواب الستة التى لا تكرر أحدها يومين فى الأسبوع الواحد .. واليوم - الأربعاء - موعد الثوب الأخضر ذى الياقة الصفراء .. فرقة الشباب والفتيات الصاخبة دوما .. ومظاهر « الفَتْوَنَة » يبديها الشباب فى استعراض أمام الفتيات .. الشيخ قارئ الجريدة .. الذى لا تفارق وجهه صفحاتها .. والسيدة أيضا .. السيدة التى تحمل حقيبة بلاستيكية ثقيلة

وتنتظر الحافلة وأبدا لا تركبها ! أوشكت يوما أن أسألها « ماذا تنتظرين ؟ » .. كل هؤلاء كانوا حولى .. تكرار اللقاء جعلنا معارف .. تتصافح عيوننا وتَعُدُّ وتحدد الغائبين !

تأخرت الحافلة وتضاعف عدد المنتظرين .. كثرت الوجوه وتزاحمت .. « مسكينة يا أمى ستقومين بكل شىء بمفردك اليوم » .

لما جاءت الحافلة لم يكن هناك بُدٌّ من الجرى والتدافع .. كثر الركل والجذب .. موجة الركاب دفعتنى تجاه الباب .. وضعت قدمى على السلم .. أحيانا تحدث فى الزحام أشياء غريبة .. لكن لا ريبة .. أو ليس الناس « غلابة ؟ »

« الناس الغلابة » يمدون أيديهم .. يعبثون .. يمزقون ملابسى يطرحوننى أرضا .. يرتمون على .. يجردوننى من ملابسى ..

« الناس الغلابة » وقفوا يتفرجون على « الناس الغلابة » !

الوجوه أمامى .. الأيدى فى ملابسى .. الأجساد فوقى.. أصرخ .. أتملص .. أخربش .. أمزق .. ملقاة . عارية .. دامية .. وسط حلقة « فرجة » .. الوجوه مأخوذة بمتابعة المشهد المثير !

شعرتُ بجلباب يطوق رأسى .. يحتوى ذراعى .. يغطى جسدى ..

الوجوه ماتت .. لفظت حياتها فوق جسدى العارى !

و .. يوم !

سألنى القاضى :

* هل هذا أحدهم ؟

- كان هناك يا سيدى .. بملابسه الضيقة وملامحه الغليظة .. كان هناك .. الرجل حامل الجريدة أيضا كان هناك .. لكن جريدته فى ذلك اليوم كان بها ثقبان أمام عينيه ..

* هل هذا أحدهم ؟

- كان أيضا هناك .. كان يصفر ويثبت النظارة .. جرحتنى نظارته فى رقبتى فكسَرْتُها .. هاهو قد لحمها ثانية !

* هل هو أحدهم ؟

- ذو البلوفر اللبنى ؟ انظروا إلى كمه .. ما الذى مزقه؟ هل مزقته أنا فى ذلك اليوم حين كان قريبا جدا منى ؟

وهؤلاء الأربعـة كان لهم خـامس .. يومهـا كانوا أكـثر صـخبـا من كل الأيام . وفـجـأة تواروا . . اخـتبـأوا فى بالوعة المجارى ! ألا تشم رائحتهم يا سيدى ؟!

* أيهم الجانى ؟

- السيـدة ذات الحقيـبة البلاسـتيكيـة .. كانت هناك .. جرت نحوى .. فـتحت الحقيـبة .. أخرجت جلبابا ألبـستنى إياه .. لكن لماذا ما تزال حقيبتها مُلأى بالجلابيب ؟

جمـيعهـم كانوا هناك يا سيـدى القاضى .. الفـتاة ذات الفستان الأخضر كانت هناك .. لكنها جرت .. ظلت تجرى وتجـرى حتى ارتمت فى حـضن أمـهـا .. ومن يومهـا لم تخرج !

* دلينى على أحدهم

- سلهم يا سـيـدى القـاضـى .. لقـد رأوا الجناة .. لم يفعلوا شيـئا غير المشاهدة .. لم يشغلهم جـسد يتعرى أو عرْض يهـتك .. لم تُغْمِ عيـونهم دموع تفـيض .. لم تشل عـقـولهم فـضـيـحـة تنقض .. لم يصـارعـوا ويقـاومـوا ويتملصوا .. كل شغلهم كان التدقيق والتحقيق .

سلهم يا سـيـدى .. كل هذه الوجـوه كـانت هناك .. أعرفها وتعرفنى .. وتعرفهم ..

امتـدت أيديكم إلى جـيوبكم .. أخـفيتم وجـوهكم الميـتة خلف الأقنعـة ... تدلت خـيـوط التـخـاذل والتنطع تحـرك الدمى.. تحولت قـاعة المحكمة إلى مـسرح .. وعاد جـميع الممثلين إلى دورهم بعد انتهاء العرض ..

اغســـطس ١٩٩٢



عيون الموتى .. ترى !

- ١ -

نام المرضى ..

وتناوم المسئولون ..

حمل الشاب حقيبة صغيرة ..

بها مشرط .. ومقص .. وجفت .. وبعض القطن .. وزجاجة بها سائل !

فتح باب المشرحة .. فرفع العامل الجالس

أمام بابها صوت شخيره المصطنع ..

دخل صاحبنا وأغلق الباب .. ضغط مفتاح النور فظهرت كآبة المكان .. أرضية صفراء .. مناضد خشبية مغسولة بسوائل جثث الموتى .. أدراج أغلقت على أجساد خلت من الروح ..

ببساطة وألفة تحرك فى المكان .. وضع حقيبته على واحدة من المناضد .. مد يده وسحب أحد الأدراج .. فظهر الرأس .. والعنق .. ثم الأكتاف وجزء من الصدر

فتح حقيبته .. أخرج زجاجة السائل ..

أمسك مبضعه بيمناه .. مده إلى عين الراقد فى الدرج.. ضغط العين بيسراه .. وبدأ العمل .. يضع المشرط .. يأخذ المقص .. يغوص بإصبعه فى عين الميت يجذبها .. يقص .. يأخذ قطعة .. يضعها فى زجاجة السائل .. يمسح يديه وأدواته فى القطن .. يدفع الدرج داخل ممره المظلم .. يجمع أشياءه .. يطفىء النور .. يخرج !

■ ٢ ■

صرخ الشاب .. انطلق خارجا من المشرحة رافضا تسلم جثة أبيه ..

جرى صاحبنا ذو الحقيبة إلى الطبيب العظيم ..

« لا تخف .. سيمر كل شىء بهدوء »

أصدر تعليماته هاتفيا لأمن البوابة الخارجية باحتجاز الابن الثائر .. جروه إليه ..

« حرمة الموتى يا وحوش »

فشلت سبل التفاهم

الابن معصور الفؤاد ..

لا يفكر إلا فى أبيه الذى استُضْعِفَ وسُلبت عيناه ..

■ ٢ ■

صاحبنا .. ذو الحقيبة يردد

« أنا عبد مأمور »

والآمر يقول فى دهشة ..

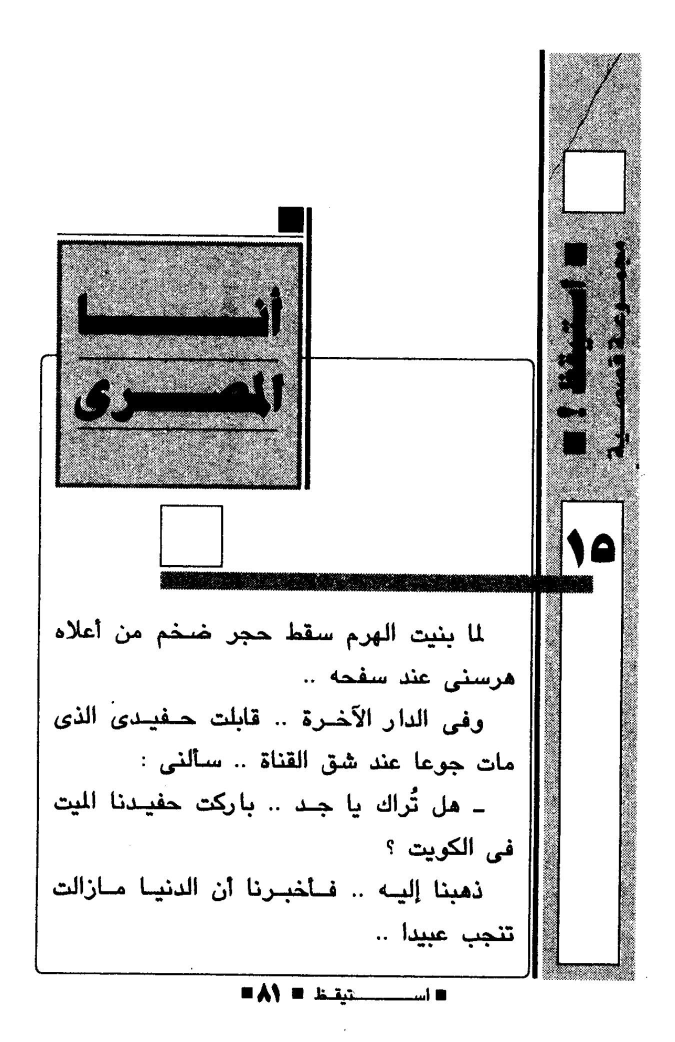
ما هى إلا جثة ميت ..

والابن يقترض المبالغ لتمويل القضية التى ستقضى على كل من مد يده لعينى أبيه ..

والميت فنى جسده بالكامل ..

إلا عيناه اللتان عاشتا .. تشرقان على الدنيا فى وجه فتاة حلوة .. تغنى للحياة ..

يناير ١٩٩٦



١٥

أنا المصرى

لما بنيت الهرم سقط حجر ضخم من أعلاه هرسنى عند سفحه ..

وفى الدار الآخرة .. قابلت حفيدى الذى مات جوعا عند شق القناة .. سألنى :

ـ هل تُراك يا جد .. باركت حفيدنا الميت فى الكويت ؟

ذهبنا إليه .. فأخبرنا أن الدنيا مازالت تنجب عبيدا ..

جلسنا عند باب الآخرة .. ننتظر القادمين !

● ● ●

سَرَقْتُ القلادة المنمنمة .. غافلت ذا الوجه الأبيض الذى سُمِحَ له بسرقة كل القلادات ..

قبضت ثمنها وبنيت دارا لَمّتْنى ..

وأنا فى السجن تذكرت المعابد التى باعوها للأبيض لما فاض النهر للخلف . ولم أفهم جرمى !

● ● ●

فتشوا الدار .. فعثروا على رسالة صديقى .. جرونى إلى الشرطة .. لم يصدقوا أنى ما رأيته منذ سنوات طوال .. صرخت من ألم التعذيب .

« ماذا لو نجح الاغتيال ؟ »

خرجت أبحث عن صديقى لأعاونه فى المحاولة القادمة!

● ● ●

عادت حفيدتى من المدرسة الإسلامية تقول قولا مفزعا.

أجلستها على ركبتى .. مسَّدْتُ شعرها .. وأخبرتها :

« إن جارتنا المسيحية هى التى أرضعت أباك لما ماتت جدتك وهى تلده » ..

نظرت لى بغيظ وقالت :

- لا تقل هذا لصديقاتى يا جدى !

● ● ●

إلى البلد الغريب سافرت حاملا مفرداتى وترابى ..

ركبت سيارتى الخيالية وأصدرت أوامرى للسائق ..

- سِـــر

برقت عين إشـــارة المرور الحـمـراء .. وطال بريـقـهـا أصدرت أوامرى للسائق

- اكسرها

لما حطمها بحجر .. عرفت أننى أحدثه بلغتى المحلية !

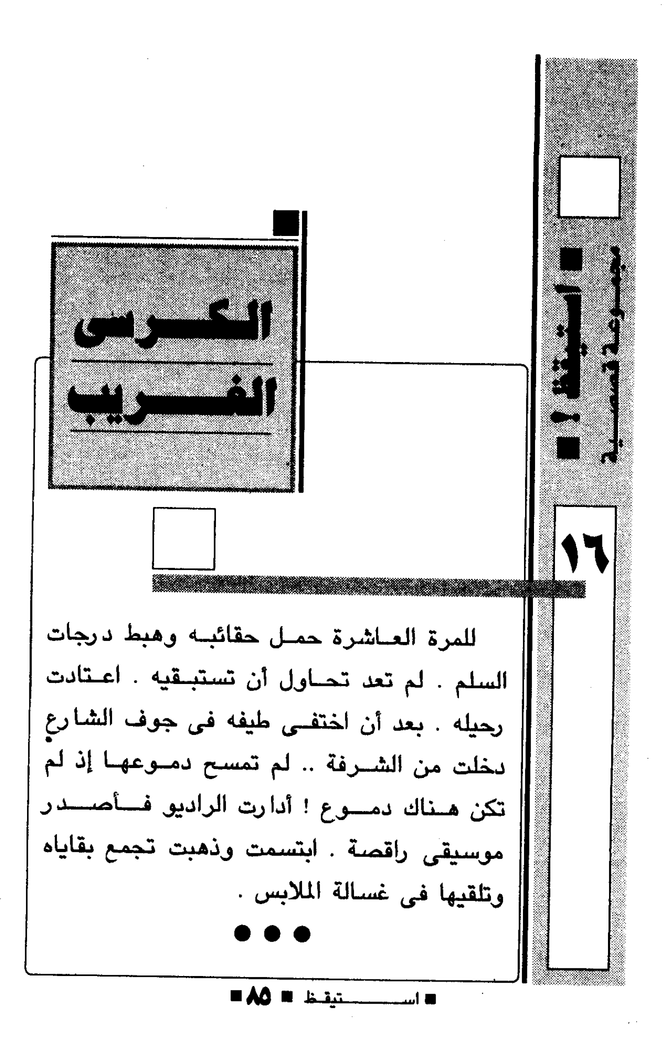
● ● ●

حـمَّـسَـنـى جـارى .. ذكَّـرنى أننا أشـقــاء .. لنا نفس اللسان .. ونفس القبلة .

ولما قتلت له عدوه .. امتـطى صهوة الجـواد الذى كنا نركبه معا .

وبقيت . أبحث عن شقيقى ..

ينـــاير ١٩٩٥



١٦

الكرسى الغريب

للمرة العاشرة حمل حقائبه وهبط درجات السلم . لم تعد تحاول أن تستبقيه . اعتادت رحيله . بعد أن اختفى طيفه فى جوف الشارع دخلت من الشرفة .. لم تمسح دموعها إذ لم تكن هناك دموع ! أدارت الراديو فأصدر موسيقى راقصة . ابتسمت وذهبت تجمع بقاياه وتلقيها فى غسالة الملابس .

● ● ●

أذهلها قدومه . هل مر العام ؟ ستضطر أن تستضيفه فى حجرتها ، فوق سريرها حتى يستأنف الرحيل .

ستتحمل أن يزاحمها ويقاسمها فراشها وغطاءها . فمآله إلى رحيل .

سقط منها الكوب حين أخبرها بسعادة أنه لن يرحل ثانية !

« كل شىء قد ألف رحيلك فلِمَ تبقى » ؟!

صار الفراش أضيق .. الحجرات لا تحتمل دخان سجائره .. الأبناء مقيدون بوجود هذا الأب الغريب بينهم . عدد الكراسى حول المائدة زاد كرسيا جديدا شاذا اشترته هى فى عجلة ليحتله .. اضطرب ترتيب دخول الحمام فى الصباح وفسد النظام !

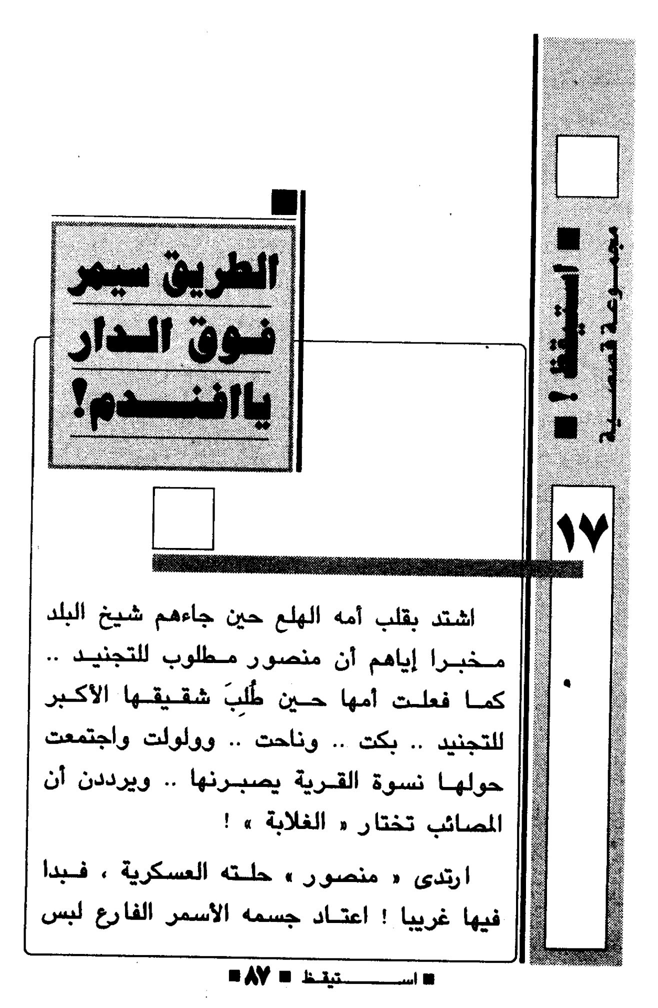
هداياه الثمينة لم تشفع له . وبقى الفراش ضيقا . والأطفال غرباء . والحجرات تخنقها رائحة سجائره .

● ● ●

عاد يحمل حقيبته ليرحل !

أصبح الفراش مريحا ، انتظم دخول الحمام ، تنقى جو الحجرات ، بعد أن اختفى الكرسى الغريب الذى لم يعد له استخدام فى المنزل .

ديسمبر ١٩٩٣



■ استيقظ ! ■ مجموعة قصصية

١٧

الطريق سيمر فوق الدار يافندم!

اشتد بقلب أمه الهلع حين جاءهم شيخ البلد مخبرا إياهم أن منصور مطلوب للتجنيد .. كما فعلت أمها حين طُلِبَ شقيقها الأكبر للتجنيد .. بكت .. وناحت .. وولولت واجتمعت حولها نسوة القرية يصبرنها .. ويرددن أن المصائب تختار « الغلابة » !

ارتدى « منصور » حلته العسكرية ، فبدا فيها غريبا ! اعتاد جسمه الأسمر الفارع لبس

الجلباب .. اعتاد حرية الحركة بداخله . اعتاد استواء كتفيه وبروز صدره فى براح جلبابه الفضفاض الخشن واعتادت يده فى أوقات الهمة التقاط ذيل الجلباب للانطلاق !

« منصور » فى الحلة العسكرية .. يبدو غريبا .. تبدو حريته مخنوقة .. ويبدو جسده خائفا مترددا متضائلا .. وخطواته ليست فى مثل رصانتها المعهودة ، حتى وجه « منصور » كانت تكسوه علامات الخجل !

خرج « منصور » إلى محطة القطار وخَلَّفَ وراءه الدار مكتظة بالنسوة المجاملات .. يصبرن أمه على ضياعه ! وهو يفكر أيضا فى ضياعه من أمه وأبيه وداره ! إحساسه بخطواته تبتعد عنهم يعتصر قلبه البكر الذى لم يعتد فراقهم . هناك بين الضباط والجنود ورمال الصحراء .. بين تلك المفردات التى لم يعرفها من قبل ، كيف ستكون الحياة ؟ لم يكن يخشى شظف العيش ولا قسوة المعيشة ولا خشونة المعاملة .. فكل هذا كان غذاء « صناعيا » رضعه إلى جانب لبن أمه الذى لم يكن يكفيه.. فاضطر إلى تغذية نفسه بنفسه . حين فطمته أمه لم تكف قروش أبيه لتغذيته .. فخرج مثل سليمان وسعيد وعبد المهيمن و .. و .. وغيرهم من رفاق العمل اليومى بالأجرة لدى من يحتاج أجيرا . كلهم خرجوا للحقول وهم بعد لا يزالون فى حاجة إلى كوب اللبن كل صباح لتكتمل أسنانهم الناقصة وتقوى عظامهم النامية . لكن أحدا منهم

لم يكن يشـرب اللبن ، بل كانوا يحـملونه كل صبـاح إلى بعض الدور ليشربه أطـفال فى مثل عمرهم مـقابل قروش تساعد فى رأب صدع حياتهم الدائم .

« منصور » فـى القطار المتجـه جنوبا للصعـيد . لأول مـرة يرى وادى النيل ، لأول مـرة يرمى بصـره فـيرى الزراعة تنتـهى وتظهر الرمال والتلال .. اعـتادت عيناه أن تتجهـا فى أى صوب فلا تريان إلا بُسُطا خضـرا . سهول الدلتا الواسعة كانت معاشه وملعبه ومَرْسَى عينيه . فاجأته الرمال والتلال .. كانت غريبة حقـا .. ولكنها حبيبة أيضا.. لماذا أحبها ؟ لا يدرى . لماذا تصور أن كل دار رآها كانت تشـبه فى شىء مـا داره هو ؟ نفس العبـير فى الدلتـا . نفس النسيم فى الدلتـا . « تلك بلدنا » لم أبعد كثـيرا عن أمى !

● ● ●

هناك ـ فى الصـعـيد ـ حـيث شـعر أنه لـم يبعـد عن داره .. وفى مركـز التدريب .. تعـلم أشياء لم يـسأل عن فـائدتها . سـر هكذا . قف هكذا . احـمل سـلاحك هكذا . الطاعة . النظام . السـرعة . اليقظـة . كل شىء تعلمه فى اسـتجـابة تامـة . هكذا تعـوَّد « منصور » .. علـمه عـمله كـأجـيـر أن يطيع الأوامـر وأن ينفـذ مـا يطلب منه دون استفسار .. وكمـا قال له أبوه قبل أن يخرج للمرة الأولى

- منذ عشرة أعوام - لينظف حظيرة مواشى جارتهم بالأجر .. قال له :

- « يا منصور يا ابنى اربط الحمار حيثما يريد صاحبه.. ولا تقل غير نعم ، حاضر » .

بهذا المبدأ البليغ الخضوع عاش منصور حياته وكان دائما يربط الحمار حيثما يريد صاحب الحمار حتى بينه وبين نفسه لم يكن يسأل عن الأمر الموجه إليه هل هو الأفضل أم أن هناك أفضل منه ؟

فى مركز التدريب لم تكن الحياة بالنسبة « لمنصور » قاسية ، لم تكن خشنة ، لم تكن صارمة ، تلك كانت حياته العادية قبل التجنيد ، لا جديد ، ربما تغير نوع الأوامر .. نوع العمل .. نوع الملابس ولكن فى نطاق أن هناك أوامر وعمل وملابس !

● ● ●

لما عاد « منصور » لداره .. بكت أمه وناحت فى استقباله ! وجلس أخوته يرمقونه وكأنه كائن فضائى ! وأبوه بجواره يربت على ظهره بين الحين والحين ، الجميع راضون عن « منصور » .. عن صحته .. عن خطوته العسكرية .. عن سفره وركوبه القطار ومروره على البلاد الكبيرة !

لكن شيئا فى العيون « منصور » الخجول الحيى

لم يستطع أن يسألهم مـا بهم .. « منصور » ورث حياءه الجم عن أبيـه فلم يستطع الأب أن يخـبره ! شق صـوت أمه المهزوم بطن الحياء فى تردد قائلا :

ـ سيشقون طريقا فى بلدنا يا منصور ..

* أى طريق يا امه ؟

ـ طريق بين بلدنا والمركز .

* هناك طريق بالفعل بين بلدنا والمركز .

ـ طريق جديد يابنى .. مـرصوف وواسع وسيـمر على جميع العزب وراء بلدنا .

* ....

ـ الطريق سيمر على دارنا يا « منصور »

* ماذا تعنين يا امه ؟

ـ سيأخذون الدار يا بنى !

* ماذا تعنين يا امه ؟

ـ الحكومـة ستـدفع تعويضـا لمن سيـمر الطريق فـوق دورهم .

* ستهدم دارنا يا امه ؟

●●●

فى ملجأ تحت رمال السويس .. سرح « منصور » فى داره .. تدفقت مشاعره نحو جدرانها .. وأرضها الترابية .. ومصاطبها وفرنها ، نحو عروق الخشب فى سقفها وأكوام الحطب على سطحها ، نحو ماضيه حين تسارعت قدماه الحافيتان فوق تربتها الحانية واحتضنته مصاطبها الوادعة فى حب .. وألقى عليه فرنها مالذ وطاب من الخبز الساخن الفواح !

طفرت دمعتان من عينيه وألقى نفسه يتمتم :

« أريد دارى .. لا غيرها »

هو لا يدرى كيف تكون أمه فى دار غيرها ؟ هل ستظل أمه هى أمه ؟ أم أن الدار هى التى تجعلها أمه ؟ وأبوه ..هل سيظل أباه ؟ أم أن الدار هى التى تجعله أباه؟ وإخوته .. وهو .. هل هم الدار أم أن الدار مجرد دار ؟

قلبه ينفرى تحت وطأة الحنين والأسى .. **« ترى .. أين سأجدهم حين أنزل للبلدة ؟ هل سأجدهم ؟ هل سيجد بعضهم بعضا خارج الدار ؟ وإذ خرجوا .. إلى أين يعودون ؟ »**

داره هى قاعدته ، منها يخرج وإليها يعود . ليس له أرض . ولا عمل دائم فى مكان محدد . ليس له نبتة ولا شجرة ولا أى شىء ثابت سوى .. .. داره.

● ● ●

قمـر سيناء ينظر إليه بوجـه ناقص .. يحاول أن يحنو عليه .. فيـبدو تعبيره مبـهما غير تام .. ضاع تعـبيره فى الجـزء الضائع من وجـهه . نظر « منصـور » إلى القمـر بوجه كـسيـر .. أحس أنه بعيد عن داره وعـن أمه ! تلفَّت حوله فـى ليل خدمتـه فألفى الـقمر يحـاول أن يضىء له الرمال التى أحبها .. فلا يستطيع .

عاود النظر إليه .. همس له :

حاول يا قمر أن تستعيد بعضك الضائع !

● ● ●

ظلال الجند تحت أقدامهم . مصطفون فى نظام مهيب . وجوههم نحو مشرق الشمس . قلوبهم خـفاقة . مشاعرهم دافقة .

حـانت اللـحظة .. « منصـور » جـالـس فى قـارب من المطاط .. على كتـفه سلاحـه .. وحول وسطه زمزميـة ماء وبعض الملح وعلـى كـتـفـيـه طوق نجـاة . أزيز الطائرات ودوى المدافع لم يمنعاه من سمـاع ضربات المجاديف على سطح الماء .. لم يمنعـاه من سماع تمتـمة الضـابط الشاب بآيات القــرآن .. لم يمنعـاه مـن سـمـاع دقـات قـلبـه .. لم يمنعاه ـ حـين مست قدمـاه رمل سيناء ـ من الصـياح بأعلى صوته

الله أكبر .. لبيك يا دارى !

مد منصــو ر يده ليرفع ذيل جلبابه فلم يجـده ، اتسعت خطواته فوق حائط الرمال .. اعتلـى القمة .. لم يعد يسمع شـيـئـا ! لا أزيـز طائرات ولادوى مـدافع ولا ضــربات مـجـاديف .. كـان فـقـط يصـرخ « **الله أكـبـر .. لـبـيك يا مصر ..** » ! أين تعلم ذلك ؟ أين أحب مـصر ؟ هل فى عـروق الخشـب فى سقف داره ؟ أم فـى فرنهـا المتـوهج الذى يلقى إليه بالخبز الساخن ؟

« **الله أكبـر** » يهـرول خلف قـائده حـاملا سـلاحـه .. يتوالـى خروج « **الآخرين** » من مـلاجئـهم تحت الرمـال رافعى الأيدى .. زائغى النظرات .

وتنحـدر الشمس .. ويحل الظلام .. وينظر «منـصـو ر» للقمر .. فيجده قد استعاد شيئا من وجهه الضائع !

● ● ●

ضـراوة القتـال تفـجـر ينابيع الشـجاعـة فى النفـوس المحاربـة .. و « منصور » كـان هو نفسـه نبع شجـاعة ينبـثق فى نفـوس زمـلائه . زملاؤه الـذين تفرقـوا حـول الجـبل وكـاد أن يُحاط بهم . اعـتلى « منصـور » الجـبل خلف قائـده ومعهـما بضـعة رجال . طابور دبـابات العدو يقتـرب ، « منصور » تعلم أن يربط الحمـار حيثـما يريد صاحبه . لكن قائده لا يأمره بشىء !

أنظار الجـميع عـالقـة بالدبابات المقـتربـة من المعبـر ..

وعقـولهم مـشغـولة بسلاحـهم الذى لن ينال أى دبابة من هذا البعد ..

« ستضيع الدار .. سيمر الطريق فوق الدار »

انطلقت قذيفة سلاحه فاستقرت فى الرمال !

ـ مجال المدفع أقصر من أن ينالها

* والعمل يا افندم ؟

عـينا منصـور لم تعـد تريا غـيـر طابور الدبابات وهو يقترب من نهاية المعبر ، وفى أذنيه يتردد صوت أمه

« الطريق سيمر فوق دارنا يا منصور »

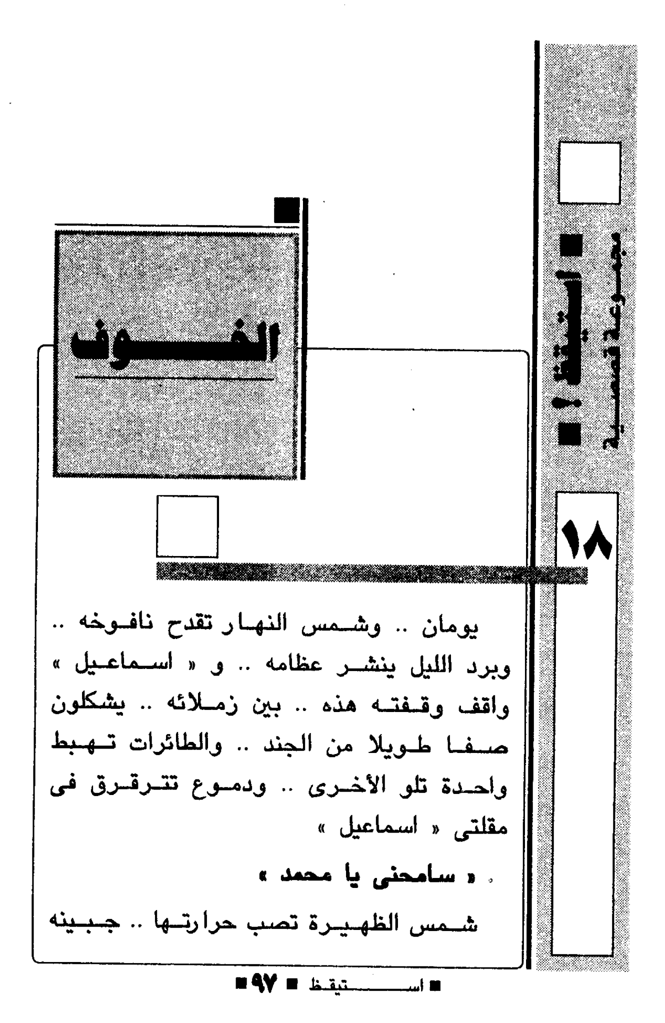
جرى منصور حاملا مدفعه نحو طابور الدبابات

*** الدار يا افندم .. الطريق سيمر فوق الدار يا افندم !**

تعالى صـوت «منصور » وهو يطلـق مدفعـه فيـصيب أولى الدبابات ويتوقف الطابور خلفها فوق المعبر .

جرى « منصـور » معـتليا الجـبل .. احتواه الـقائد بين ذراعيه .. **فإذا بالقـمر الذى اكـتمل وجـهه .. يبـتسم فى عرفان .**

اكتـــوبر ١٩٩٢



الخــوف

يومان .. وشـمس النهـار تقدح نافـوخه .. وبرد الليل ينشـر عظامه .. و « اسـماعـيل » واقف وقـفتـه هذه .. بين زمـلائه .. يشكلون صـفـا طـويلا من الجند .. والطائرات تـهـبط واحـدة تلو الأخـرى .. ودمـوع تتـرقـرق فى مقلتى « اسماعيل »

« سامحنى يا محمد »

شـمس الظهـيـرة تصب حرارتـها .. جـبـينه

الأسمر يلمع .. ووجهه لا يحيد يمنة ولا يسرة .. تعلم كيف ينظر إلى لا شئ .. وكيف لا ينظر إلى ما يريد !

« يومان يا محمد ولم أرك .. أتراك مازلت حيا يا ولدى ؟ »

الطائرات يتوالى هبوطها .. يخرج منها سود .. وبيض.. وتدق الموسيقى .. يختال القادمون على بسط مفروشات .. يختفون فى سيارات سوداء .. وترحل السيارات .. تذكر السيارة التى «يتشعبط» فيها يوميا فى طريقه لعمله .. الأجرة ربع جنيه لكنه دائما يدفع ثلاثين قرشا .. ولا يجرؤ على الإعتراض !

قدماه صارتا كقاعدتين من الأسمنت .. لا يشعر بهما .. وبين الحين والحين ترتعش صابونة ركبته فى توتر وتقلص .

« كان لابد أن أصرخ فى وجوههم يا محمد .. إنه دورك أنت .. ما الذى أخرسنى ؟ »

أعضاء الوفود يسيرون فى أناة ووقار .. اسماعيل يتمنى لو يسرعون قليلا .. ربما صار هناك متسع من الوقت يرى فيه محمدا .

« نحن آسفون يا اسماعيل .. سنجرى العملية لمريض آخر قبل ولدك »

السكين الحاد رشق اسماعيل حتى انغرس فى نخاعه « هذا دور محمد يا بيه »

« نعم .. لكن لا يمكن تأجيل المريض الآخر »

« محمد سيموت يابيه »

« هل ستعلمنا شغلنا ؟ »

جـرجـره عـمله من حـضـن ولده المحـتـضـر .. إنهـا الطوارئ .. هل يملك أن يقول : « لا » ؟

المؤتمر سـيـجئ له الناس من شـرق الدنيا وغـربهـا .. حكام العـالم .. هل ستـقول « أنت » : لا ؟ وأين صـوتك يا صعلوك بين الملوك ؟

« إرعه جيدا يا فاطمة »

« الولد سيروح منا يا اسماعيل »

الضـيف العظيم عـلى وشك الوصـول .. أعـادوا ترتيب الجند .. أرض المطار كسيت بعدد أكبر وأفخر من البسط .

« الضـيف القـادم من بلد الطبـيب الأجنبى الذى كـان سيـجرى لمحمـد العملية » .. الـطائرة العملاقـة تحوم فى سماء المطار ..

«كـان لابد وأن أدمـر المسـتـشـفى على من فـيـه .. هل سـيعـيش مـحمـد حـتى يأتى الطبـيب الخواجـة بعـد شهـور أخرى ؟ »

الفرقـة الموسيـقية فى زيهـا الرسمى تسـتعـد .. ذكرته بفرح بـنت عمدة قـريته .. حين لمح الصـول « على » يده

تمسك بالجنيه «لتنقط» الفرقة .. فقال له « هيا يا اسماعيل.. أعطهم هذا الجنيـه الذى فى يدك وقل لهم : الصـول على يحيى العروسين » ! دق قلبـه .. وتدفق الدم فى عروقه .. كيف وافق ؟ **كيف سمح للصول أن يستغله هكذا ؟**

الطائرة تجرى على أرض المطار

الضيف العظيم مـن بلد الطبيب الذى لن يجرى لمحـمد العملية ..

والمريض الآخر سيشفى .. ومحمد سيموت ..

« يا حبيبى يا ابنى »

تفر الدموع من عينى اسماعيل .. تتساقط على سترته ..

« أبوك جبان يا محمد »

تتوقف الطائرة الـعملاقة .. يـفتح بابها .. تبـزغ شمس الضـــيف العظـيم .. تزداد الحـــركـة علـى أرض المطار .. أشخاص يتلفتون .. يتحدثون فى أجهزة سوداء .. يضعون فى آذانهم أسلاكا ..

« ماذا سيحدث لو أجرى الطبيب عمليتين ؟ »

الضيف ومستقبله يتصافحان ..

« أبوك فرط فى حقك .. أبوك جبان يا محمد »

يسير الضيف وسط مستقبليه ..

دموع اسماعيل تغسل وجهه .. شـهقات بكائه ترتفع

« إياك أن تموت يا محمد »

الضيف ـ الذى من بلد الطبيب ـ يسير على البساط الأحمر.

« سـأشرح له الأمـر يا مـحمـد .. سيـرق قلبـه لنا .. وسوف يأمر الطبيب بأن يجرى لك العملية .. »

« ستعيش يا ولدى »

دفع الأمل اسماعيل إلى موكب الضيف .. حاملا سلاحه ..

مزقت الرصاصات جسد اسماعيل ..

وتناقلت وكالات الأنباء .. نبأ محاولة الاغتيال الفاشلة!!

مـــارس ١٩٩٦



حين أخذ الكيس المعفر بالتراب ودسه بين طيات ملابسه كان يظن أنه ملئ بالنقود .. أكمل يومه فى رفع الأنقاض وانتشال جثث الموتى وهو يبرر لنفسه فعلتها ويمنيها بأيام يسر قادمة .. كان يرى بطرف عينه آخرين يفعلون مثله .. لقد مات أصحاب الثروة الأغنياء ، وسيرثهم أصحاب ثروة أغنياء أيضا.. لا يحتاجون إلى هذا الإرث .. ولن

يفقرهم أن ينتقص من إرثهم قطعة ذهب أو كيس نقود .

أبنائى فى الحجرة المتصدعة يقلبونها رأسا على عقب بحثا عن رغيف خبز .. بل كسرة خبز .. إذا تهدمت الحجرة علينا لن يجد أحد شيئا ينتشله .. حتى جثثنا ستتفتت وتختلط برماد الانهيار وتختفى .. نحن أهش من أن نحتمل انهيار منزل فوق رؤوسنا ! أما تلك الجثث التى تفيض حياة .. فقد صمدت .. لأنها كانت تجد ما تأكله .. بل تأكل ما تشتهيه .. متعبون هؤلاء الأغنياء حتى فى مصائبهم .. تقوم لهم الدنيا ولا تقعد .. والدنيا نحن الذين نرفعها على أكتافنا .. حتى فى موتهم متعبون .. ضخام الجثث ثقال الوزن .

الكيس معى .. مخفى فى صدرى .. هو حقى بعد أن مات صاحبه .. فقرى وجوع أطفالى وعريهم يجعله حقى.. ولا أقل من أن آخذه ! عشت عمرى أخدم أمثال صاحب الكيس .. عشت عمرى ألبى وأهرول وأهان وأخلص لمخدومى .. ولم أجد يوما لسانا طيبا أو نظرة مقدرة ..

فى نهاية اليوم عاد إلى حجرته الكئيبة المتصدعة .. أو عشته بمعنى أدق ، أعواد الغاب تظهر فى جدرانها بعد أن تفتت ما كان يسترها من طين . على فراش بسط فوق أرضية العشة .. كومة من البشر .. ملابسهم رثة ..

جلودهم جافة سوداء .. وعظامهم تلفت النظر قبل أى

شئ . وخلف باب الحجرة تجلس زوجته الصفراء المطحونة أمام « طشت » ملئ بالماء الساخن ويداها المدريتان تدعكان قطع الغسيل الرثة فى آلية ثم تلقيان بها فى إناء « بلاستيك » مشروخ !

دخل الرجل بيته بدون تحية .. ولم تبد الزوجة أى ترحيب أو اهتمام بقدومه .. حين يشتد الكرب يصبح تبادل التحية نوعا من البلاهة !

جلس بجانب النائمين .. أخرج كيسه من صدره .. فتحه فإذا به يجد حافظة .. إذن فهناك نقود .. وإلا فلماذا وجدت « المحافظ » ؟!

زوجته مستمرة فى غسيلها .. عيناها تنظران إليه نظرة خالية من كل معنى أو توقع .. فلم تعد تفكر فى أى شئ أو تنتظر أى شئ أو تحلم بأى شئ .. إنصهرت كل مشاعرها وأمانيها فى بوتقة الكرب التى تحياها مع سبعة من الأبناء !

فتح الحافظة الجلدية فإذا هى خالية من النقود ! ليس بها مليم ! كل ما فيها **« كلام فارغ .. شوية سلاسل وغوايش وحلقان فالصو .. ما فيهاش حتة دهب أصفر ! »**

هب واقفا .. قذف بالحافظة عرض الحائط وهو يلعن أبو الفقر ! إندفع خارجا من باب الحجرة كميت يفر من قبره . تناثرت محتوياتها تبرق بريقا أخاذا فى الضوء الخافت ..

استمرت الزوجة فى غسيلها ومن حين لآخر تلتقط عيناها شعاعا براقا ينبعث من هنا أو من هناك .. أنهت غسيلها ورصته فوق بعضه ونهضت تفرد ظهرها وتتأوه ألما .. عصرت جلبابها المبتل.. وسارت إلى فرشتها .. تمددت ملقية ذراعيها إلى جانبيها .. وقعت يمناها على شئ التقطته فإذا به فردة قرط .. أعجبها بريقه .. نهضت فى وهن .. جمعت ما تناثر فى الحجرة .. وضعته فى الحافظة الجلدية .. واستبقت القرط المضئ خارجها .. غسلت يديها ووجهها .. وغيرت جلبابها وارتدت آخر نظيفا مجعدا أخذت تمسحه براحتيها لتفرده .. مشطت شعرها الذى تناثرت منه ذرات الغبار .. **ثم علقت القرط** ! بدا غريبا .. فأحدهما لا يصلح للآخر .. لا هى .. ولا القرط ..

تمددت ثانية ونامت فى رضا !

فى الصباح .. عاد الزوج لعمله .. يرفع أنقاض العمارة المنهارة .. وكله إحباط وأسى .. لقد بالغ فى التمنى حتى أنه تصور فى لحظة أن الكيس يحوى ألف جنيه وأكثر !

ثم سرى خبر

« الأنقاض تحوى حليا بأربعة ملايين جنيه ! »

ماسات بأربعة ملايين جنيه ! لكن ما شكل الماس ؟ أفزعته الاجابة ترك عمله .. جرى إلى حجرته ..

زوجته مازالت ترتدى قرطها الماسى .. وتقلب إناء العدس ! جذبه من أذنيها ..

« مصيبة .. وقعنا فى مصيبة »

نظرت إليه فى بلاهة !

« الشوية الحلقان دول بأربعة مليون جنيه »

إشتدت بلاهتها .. فمن الواضح أنها لا تتصور أن هناك رقما أكبر من الألف ! روى لها ما حدث .. وهو يحتضن حافظة الماس .. أخفاها فى صندوق الملابس .. حذرها من التفوه بحرف حتى يرى رأيا فى الأمر .

عاد لعمله .. الجميع ليس لهم حديث سوى الماس المفقود .. الكل يراقب الكل .. هو الوحيد الذى لا يراقب أحدا .. لو سلمه للشرطة قد يتهمونه بسرقة شئ منه .. فمن يدريه أن أحدا لم يأخذ منه شيئا قبل أن يعثر هو عليه .. من يدريه أن خادمة السيدة لم تغافلها وتسرق منها قطعة ؟! (سيظنون به الظنون فلماذا لم يسلم الكيس بمجرد أن وجده ؟ ولماذا أخذه بيته ؟ ولماذا أخفاه ؟ ولماذ ؟) آه لو يستطيع أن يأتى به ويعيده ثانية للأنقاض.. ولكن ذلك مستحيل الآن فالكل يراقب الكل .. وإذا هم بإخراج الكيس من ملابسه سينقض عليه من لا يرحم . لكن ترك الحافظة فى الحجرة مسألة غير مأمونة فربما يفكرون فى تفتيش منازل العمال ..

« ده أربعة مليون جنيه .. مش لعبة »

أمضى يومه وهو لا يعى شيئا مما يدور حوله .. عقله تورم من كثرة البحث عن مخرج .. وكلما تأمل فى حقيقة أن حجرته الحقيرة بها أربعة ملايين جنيه كاد يلطم خديه! المصيبة أكبر من أن يحتملها .. لابد أن يجد وسيلة يتخلص بها من هذه الورطة !

كعادته لم يحى زوجته حين عاد لبيته .. وعلى غير عادتها سعت إليه وجلست إلى جواره .. غشيها شئ من القلق عليه .. شحب لونه .. وزاغت عيناه .. وتهدمت قواه! هى فقط التى تقدر حجم الفزع الذى يشعر به .. لكنها لا تستطيع أن تتفوه بحرف .. فلسانها عقدته المصيبة !

« أروح أبيعه .. مش معقول هو أنا وش ألماظ ؟ »

ردت زوجته فى بلاهة

« إرمه فى البحر »

برقت عيناه وكأنهما ماستان .. راقته الفكرة ! نهض مسرعا .. نبش الصندوق .. أخرج الحافظة ..

أفاقت الزوجة من بلاهتها ..

« طيب سيب حتة للعيال »

نهرها لأنها لا تفهم ولا تقدر العواقب ..

« هى حلاوة عشان أسيب حتة للعيال ؟ »

ظل يسب ويلعن حتى خرج من الحجرة ثم عاد فأعطاها خاتما .. وخرج ثانية !

الليل خيم والبرد شديد .. وشاطئ البحر تعصف به الرياح وتعوى .. يشعر أن النار ستخرج ألسنتها من وجنتيه ! سار حتى وصل سور الكورنيش .. ويده فى جيب جلبابه ممسكة بالحافظة الجلدية .. ظل واقفا يستجمع شجاعته .. مر بعض الوقت لم يشعر طويلا كان أم قصيرا .. وفجأة أخرج الحافظة وقذفها بكل ما أوتى من قوة وغيظ وفزع إلى البحر .. لكنها سقطت على رمال الشاطئ .. رُوِّعَ حين رآها جاثمة هناك .. جرى إليها ليسقطها فى جوف البحر .. لكنه تراجع .. وقفل عائدا إلى منزله ..

لماذا لا يشعر بالراحة وقد تخفف من حمله ؟

وقفت زوجته بمجرد عودته .. ربتت على كتفيه «هنعمل إيه بالفلوس المهم إنك بخير»

مواساة بلهاء عاجزة .. أشاح عنها .. ابتعد وتكوم فى ركن الحجرة حزينا .. مغتما .. لاعنا نفسه التى لا تعرف ماذا تفعل بالثروة ..

فى الصباح التالى كان فى عمله يكمل رفع أنقاض العمارة المنهارة .. ويصيخ السمع ليعرف مصير الماسات ..

مضى اليوم ولا خبر .. ومضى يوم آخر .. وأيام أُخَرْ..

لابد أنه قد عثر على الماسات من يعرف ماذا يفعل بالثروة ؟ عثر عليها من لا يفزع منها ..

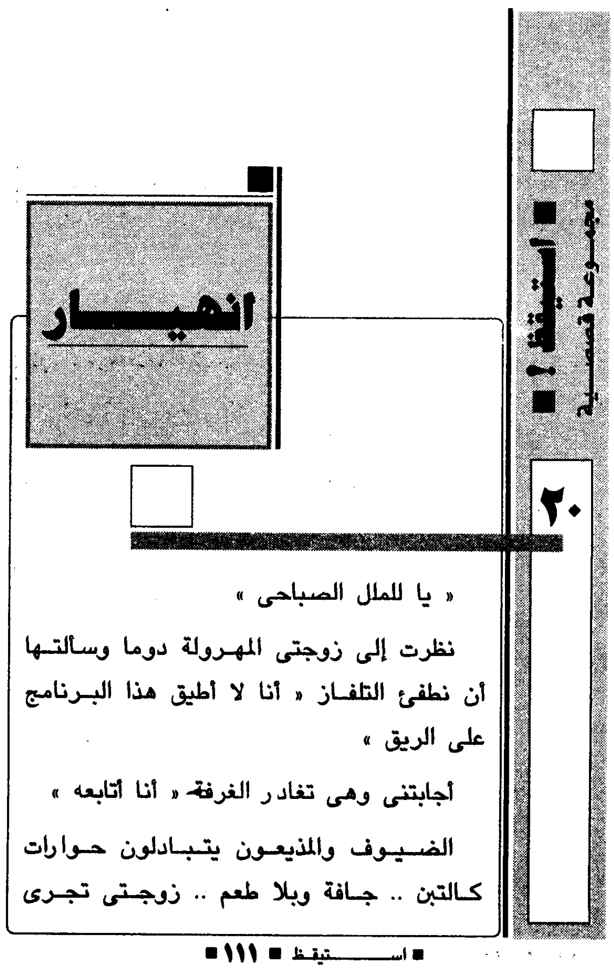
انتهى عمله .. جلس فى بيته حزينا مغتما .. ألم يكن يستطيع أن يخفى ماساته كما سكت وأخفاها من وجدها ؟

●●●

لما اقتحمت الشرطة داره .. أخرجت الخاتم الذى نسيه فى غمرة غمه وكمده .. أخذت الخاتم وأخذته لتسأله :

أين أخفى باقى الماسات ؟

فبراير ١٩٩٢



انهيار

« يا للملل الصباحى »

نظرت إلى زوجتى المهرولة دوما وسألتها أن نطفئ التلفاز « أنا لا أطيق هذا البرنامج على الريق »

أجابتنى وهى تغادر الغرفة « أنا أتابعه »

الضيوف والمذيعون يتبادلون حوارات كالتبن .. جافة وبلا طعم .. زوجتى تجرى

بين المطبخ وحجـرة الأولاد ولا تلتفت للتلفـاز .. أنا وحدى أتجرع يوميا مشاكل العالم وأزماته وصراعاته وتفاهاته !

المذيعة الرقـيقة التى سقطت من شـفتيهـا حروف الطاء والظاء والصاد والضاد وكل الحروف المتوحشة الشريرة .. تلقى النبأ بتـأثر تتعمد أن يـصل للمتفرجين وكـأنها ممثلة رديئة..

العمارة ما هى إلا كومة دبش وتراب ..

فوق هذا الدبش وحول هذا التراب بشر ..

تحت هذا الدبش وفى جوف هذا التراب بشر ..

● ● ●

ذهبت إلى هناك ..

كثيرون مثلى تركوا أعمالهم وذهبوا ليتفرجوا ..

مر على الانهيار أكثر من خمسة عشر ساعة .. الخبراء يغـرســون فى الركـام أنابيب طويلة .. ويحـملون أجـهـزة ويضعون سماعات .

سألت الرجل إلى جوارى ..

ـ ماذا يفعلون ؟

* يتسمعون أصوات الأحياء

ـ لماذا ؟

* ليخرجوهم طبعا !

ـ يخرجونهم بهذه الأنبوبة المغروسة فى الركام ؟

* كيف بهذه الأنبوبة ؟ سيزيلون الركام طبعا ..

ـ فلماذا لا يزيلونه إذن ما دام سيزال سيزال .. ؟

تركنى الرجل وابتعد خطوات ووقف يتابع

الخـبراء عـابسـون .. وبين الحين والحين يقـفون أمـام مذيعة شقراء « لأن المذيعات طبعا لابد أن يكن شقراوات » ويشرحون إمكانيات أجهزتهم المتطورة .. وخطة الإنقاذ ..

● ● ●

أشخـاص يجرون إلى رئيس فـريق الإنقاذ .. يخـبرونه أنهم يسمعون استـغاثات من أحد جوانب الركام .. الرئيس ينظر فى شك .. وعبوس .. يحمل جهازه الرائع .. ويسير فى وقار العلماء وبهـدوء وتأن لا يتناسبان مع الظروف .. يغرس الأنبوب ويتسمع ..

يسأله شاب ..

ـ ماذا تفعل ؟

* ششش

ـ لقد سمعنا الصراخ !

* ششش

تكرر غرس الأنبوب فى عدة مناطق ثم أعلن الخبير

* لا أحياء هنا !

جرى البعض وراءه

ـ لقد سمعنا الصراخ ..

إرتعد الخبير ..

* جهازى لا يخطئ .. جهازى يسمع دبة النملة على بعد عشرين مترا .. دعونا نعمل .. أنتم تعطلون مجهوداتنا.. نحن .. الجهاز .. الأحياء .. حرام ..

● ● ●

هذا هو اليوم الثالث

ثارت جلبة .. وشقت الزحام حافلة هبط منها بعض الأجانب معهم كلابهم ..

ـ ما هذا التخلف ؟ كلاب ؟

* يضع سره فى أضعف خلقه ..

ـ العالم يتحرك بالكمبيوتر ونحن تقودنا الكلاب ..

اعتلى الكلب الأسود الضخم قمة الركام .. تشمم هنا وهناك دس أنفه فى نقطة .. دار حولها .. نبش وعوى .. إندفع إليه مرافقوه .. أشاروا للعظيم صاحب الجهاز .. هز رأسه فى عدم اقتناع ثم نادى بقرف للبعض لرفع الركام

بناء على توجيهات الكلب ..

كبر الجمهور وهلل لما توالى خروج البشر

- لا شئ أعظم من خلق الله .. حتى لو كان كلبا

- كل التقدم لا يساوى أنف كلب ..

- سبحان الله ..

● ● ●

أتانى صوتهم .. خمسة أيام وهم محشورون بين كتل الخرسانة .. تجمع الجمهور أمام الفتحة التى ينطلق منها الصراخ .. ننتظر خروج المدفونين المستغيثين .. يحمل السادة الأطباء العظماء عدتهم ويدلفون إلى النفق .. نرتاح لوصول الأطباء .. الصراخ يزداد .. الجمهور يتحرك فى قلق .. الصراخ يدوى .. بعض الأطباء يخرجون بسرعة ..

يتوالى خروج الجثث .. جثة بدون ساق وأخرى بدون ذراع وثالثة ليس لها قدمان ..

● ● ●

اندفعت الأم والأخت تجاه بقايا الجثة المتحللة .. صراخهما يشق الأكباد .. الوجه الجميل تحول إلى عجينة بشرية .. الذراع والفخذ الأيمن غير موجودين انفصلا أثناء جذب الجثة .. ملابسها بقيت كما هى ..

الضـابط الشـهم يدفـع الأخت ويشـتم الأم .. يزعـجـه صراخـهمـا كيف تصـرخان ؟ وضع طبيـعى فى نظره أن تموت ؟

ـ هل كنتما تظنان أن تخرج على قدميها ؟

أشعر بالغثيان ..

روعنى شعـور الأم حين رأت هذا الجسد الحـبيب الذى رعتـه ونظفته وأرضـعته وصـففت شعـره ممتهنا إلى هذا الحد ؟ هى لا تستطيع أن تضم حبيبـتها الميتة .. ستنهرى بين يديها ..

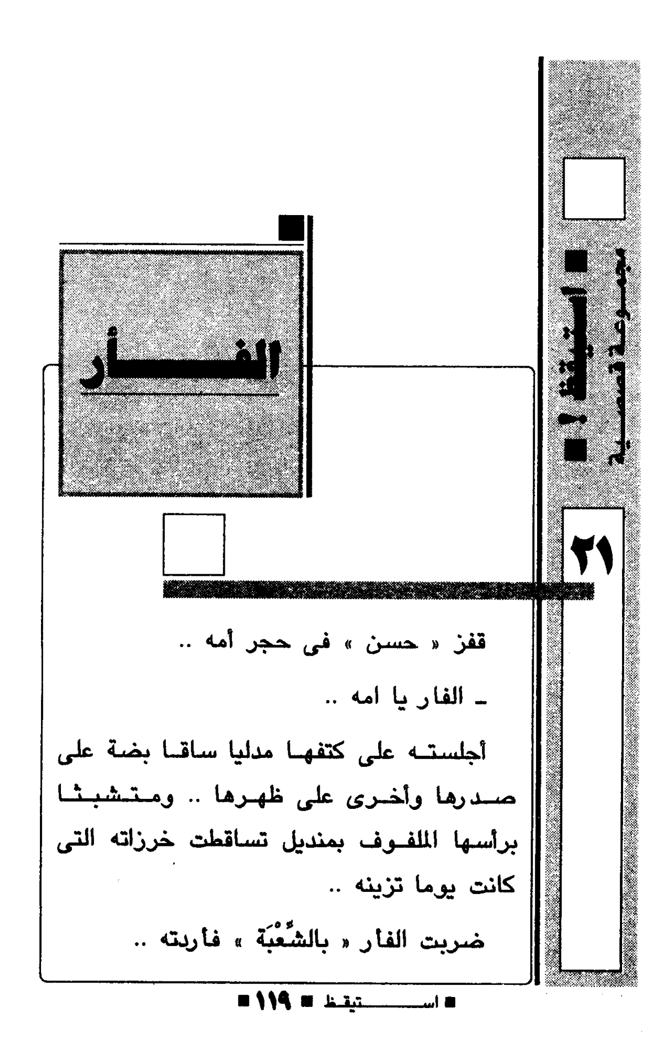
● ● ●

كرهت الجميع ..

أسبوع كامل مَرَّ وأنا آتى إلى هنا .. الركام مازال عاليا وكأنهم يرفعونه بطبق فنجان .. رئيس فريق الإنقاذ مازال يتحـدث للمذيعة الـشقراء .. الضـباط يصرخـون فى أسر الموتى .. الروائح تملأ المكان .. الموتى لم يعد لهم ملامح.. زوجـتى مازالت تفـتح التلفـاز يومـيا ولا تتـابع البـرنامج المقـرف .. الوزراء يصـدرون القـرارات الرنانة ويتـركـون ما نحن فيه .. الموظفون المتفرجون عادوا إلى أعمالهم حيث لا يعملون شـيئا .. سائق الأتوبيس مـازال يقف بعد المكان المحدد ..

وجـدت نفـسى مشـتـبكا مع رئيس فـريق الإنقـاذ ذى الجهاز والسماعات .. اختطفت السماعات .. حطمت الجهاز.. صرت أجرى فوق الركام وأنا أصيح .. إسمعوا بقلوبكم .. صورتنى كاميرات التلفاز .. لكن زوجتى لم ترنى .. كانت خارج الغرفة حين نقل التلفاز للأطفال فقرة المهرج !!

نوفمـــبر ١٩٩٦



الفأر

قفز « حسن » فى حجر أمه ..

ـ الفار يا امه ..

أجلسته على كتفها مدليا ساقا بضة على صدرها وأخرى على ظهرها .. ومتشبثا برأسها الملفوف بمنديل تساقطت خرزاته التى كانت يوما تزينه ..

ضربت الفأر « بالشَّعْبَة » فأردته ..

تقـدمت القدمـان الحافيـتان الصـغيـرتان فى توجس .. وانحنى الجـذع .. وامتـد العنق .. وتسمـرت النظرات على القتـيل الضئيل .. وبدأت البـسمة تلون الوجـه البرئ بلون من الراحة .. ضحك قائلا :

ـ ده فار يا امه !

ـ ما أنت عارف إنه فار ياوله !

● ● ●

يقـولون أن على ضـفـة القناة حـجـرات مـدفـونة فى الرمال.. مـلأى بالشاشات .. على الشـاشات تظهر صفـحة القناة .. وإلى جوار الشـاشات أزرار .. زر يكسو صفـحة الماء بالـنابالم .. وزر يـطلق دانات المدافـع .. وزر يحـــرر الصـواريخ من عــقــالهـا .. و « **هم** » جـالســون أمـام الشاشات.. إلى جوارهم زجاجات مثلجة .. وأطباق ملأى .. تطوف عليهم ضـابطات جميلات .. جئـن للحرب ولأغراض أخرى .

« **حسن** » على الضفة العـارية .. ليس له ساتر .. ولا أزرار لديه .. كان يقطع ليل خـدمته الطويل بسـؤال واحد **« كيف أحمل سلاحى .. وأركب قـاربا .. ويسبح القارب .. ويصل للضفة الأخرى .. دون أن تمتد يد إلى الأزرار ؟»**

العجز فى قلب « **حسن** » يهزمه دوما ..

« **سنقاتل** » ! كلمة حمقاء .. إنه المارد الكامن فى مخبئه.. تكفيه لمسة واحدة لينطلق ويسحق ..

إلى جوار أمه ينطلق لسانه ..

« **أنا خايف يا أمه** »

« ربنا معكم يا ولدى »

كلمات قادته وعناوين الصحف و « **ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة** » .. كلها تثيره .. الأمر منته .. ضاع ما ضاع .. فلنحافظ على ما بقى .. لا داعى لاستثارة المارد ولندعه كامنا فى قمقمه ..

جالس مع رفاقه فى خندقهم .. يتحدثون عن اليوم المنتظر .. خرج عن عادته فى تلك الليلة وقال :

ـ أنتم تتمنون المستحيل !

رصاصات الأعين مزقته .. اخترقت أذنيه كلمات يخرج بعضها من نطاق اللوم إلى نطاق السب .. تركهم وخطا إلى خارج الخندق .. أتاه صوت من الداخل ..

« **إوع العفريت يا وحش !** »

أعقبه ضحك جماعى صاخب ..

● ● ●

يحب فراشه الخشن هذا .. فهو سريره ومقعده ومكتبه

ودولابه .. عليه أمضى الأيام الجميلة حين كان تلميذا .. حين فرغته أمه بالكامل للدراسة .. حين كانت أكواب الشاى الساخن تتوالى عليه .. حين كانت روائح الطبيخ تفوح فى أيام امتحاناته أكثر من باقى الأيام .. «علشان يبقى فيك حيل للمذاكرة» كما كانت تقول أمه ..

مستلق على فراشه .. يستعرض حياته .. لم يستطع أن يفعل شيئا بعد .. وما زالت أمه تحمل بيض الدجاجات وأعواد البقدونس إلى السوق ..

ـ وآخرتها يا امه ؟

* كل خير يا حسن .

سجن الجندية حرمه من رعايتها .. لم يمكنه من أن يعطيها قرشا ! مازالت تطعمه وتكسوه وقد أشرف على الخامسة والعشرين .. وشهادته التى كانت أمه تظن أنها مفتاح الفرج .. لم تفتح شيئا !

● ● ●

« كلامك الفارغ لن تكرره يا حسن .. »

أحنى رأسه .. الجميع عرف أنه خائف .. نعم هو خائف رغم كلمات قائده التى يقولها الآن .

« أنت رجل يا حسن .. وبالعزيمة نحن قادرون على .. »

لا يعى شـيـئـا .. الأزرار وأنابيب النابـالم أقـوى من الكلمات ..

« أنا واثق من معدنك يا حسن »

« معدنى ؟ أنا أدرى بمعدنى .. لست جنديا ! »

● ● ●

قالت أمه ..

- زيك زى زمايلك يا حسن .. الناس كلهـا خلقة واحدة يا ابنى !

أنا وحدى الخائف يا امه ..

- ربنا عالم بما فى القلوب يا ابنى ..

« أيكونون خائفين ؟ »

أدهشته الفكرة ..

مستلق على فـراشه الخشن .. أتاه صوت أمه تتـشاجر كعادتها مع جارهم « **المستعفى روحه** » كما تصفه دائما .. يشعر بالأمان حين يسمع صوت « المستعفى روح » يخفت أمام صوت أمه الراسخ . يسمع دبيب البهائم التى يربطها جارهم أمام دارهم حـتى لا تدنس أمام داره هو .. يسمع دبيبها وهى تبتعد عن بابهم .. وتدخل أمه كعادتها بعد كل انتصار تتمتم ..

« عالم تخاف ما تختشيش »

●●●

« كان نفسى أشوفك يا أمه »

اندهش لسعادة الضبـاط والجنود .. دارى قلقه .. قدمه تضغط ضغطات متتالية نافخة القارب .. قلبه يترقب الهول المنتظر ..

الطائرات عادت ؟

هل يعقل أن تعود ؟

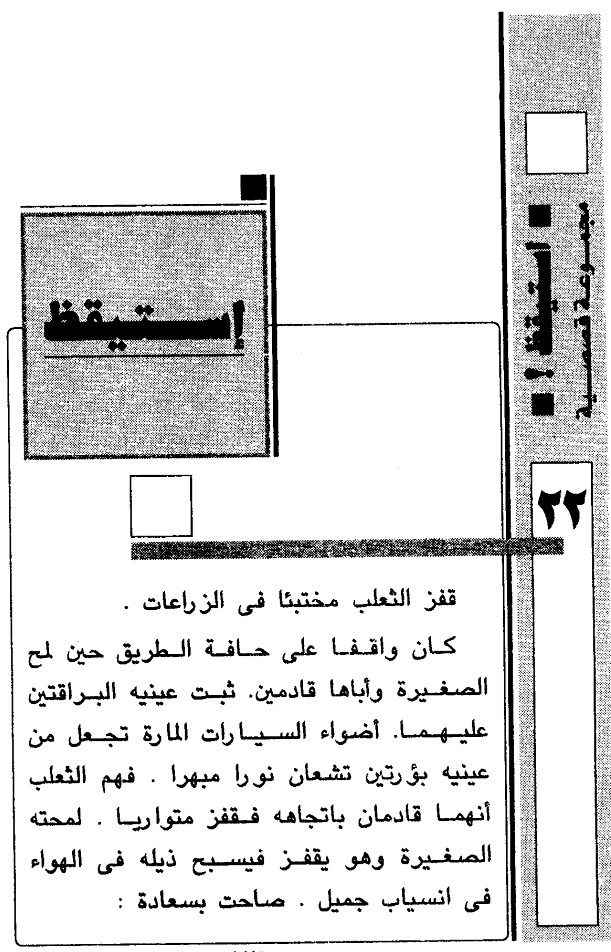
أين الأزرار ولِمَ لَمْ تنطلق الصواريخ ؟

دفعوا قواربهم لصفحة القناة .. قفزوا فيها .. تقدموا .. هل تعطلت الأزرار ؟ يدعـو الله أن يصل سـريعـا قـبل أن تتـغطى القناة باللهب الحـارق .. خطت قـدمـه فوق رمـال سيـناء .. بعضـهم يقبل الرمـال .. لم يقبل هو الـرمال .. اندفع معتليا الساتر .. مقتحما الحجرات المدفونة .. محطما الشاشات والأزرار ..

يأتيه صوت أمه ..

« ما أنت عارف إنه فار يا وله ! »

ســـبتمبر ١٩٩٦



إستيقظ

قفز الثعلب مختبئا فى الزراعات .

كان واقفا على حافة الطريق حين لمح الصغيرة وأباها قادمين. ثبت عينيه البراقتين عليهما. أضواء السيارات المارة تجعل من عينيه بؤرتين تشعان نورا مبهرا . فهم الثعلب أنهما قادمان باتجاهه فقفز متواريا . لمحته الصغيرة وهو يقفز فيسبح ذيله فى الهواء فى انسياب جميل . صاحت بسعادة :

ـ قط يا أبى

فرد بتوجس :

« بل ثعلب يا صغيرتى »

إلتقط حجرا ورمى به مخبأ الثعلب . انتفض جسمه الصغير فى مخبئه ولم يتحرك خطوة وظل يراقب السارين .

فى الصباح خرجت الصغيرة ككل يوم تلهو فى طرقات قريتها الوادعة . رفاق اللعب بالعشرات . ولكن لا لعب اليوم . فقط هناك حكايات . سأحكى لهم عن الثعلب . تحلق الرفاق حول الصغيرة وهى تحكى . عيونهم ثابتة . وجوههم مأخوذة . قلوبهم خفاقة . ليت حكاية الثعلب أطول قليلا . ليس فيها ما يثير. كان لابد أن أطارد الثعلب لتكون لحكايتى قيمة ! خرج من وسط الصمت صوت ..

ـ يا كاذبة .. ليس فى قريتنا ثعالب .

هوت من علياء فخارها إلى حضيض الاتهام ! تلاحقت الأصوات .

ـ نعم . ليس عندنا ثعالب .

كان لابد من حسم الأمر . لابد أن تخرسهم جميعا . لكن كيف ؟

ـ سآتى لكم بالثعلب !

ضحك الأطفـال حتى تقطعت أنفـاسهم . وهبـوا جميـعا يبحثون عن الثعلب !

انتهى اليوم ولا أثر .

فى المساء سأل الأطفال آباءهم

- هل عندنا ثعالب فى القرية ؟

ابتسم الآباء من جهل صغارهم !

استـمـر الـبـحث . نسى الأطفـال أنهـم كـذبوا رواية الصغـيرة وجَدُّوا فى بحـثهم وكأنـهم رأوا الثعلب معـها ! الأمل كل الأمل أن يوقعوا بالماكر ذى العينين الواسعتين .

صيف الاجازة طويل . والبحث عن الثعلب المكار أحسن ملهاة يقطعون بها الوقت .

- ألا نقدر على ثعلب حقير ونحن عصبة ؟

- إذا كان مكارا فنحن أذكياء .

- ولكنه يعرف أين يختبئ ؟ وكيفْ يختبئ ؟

- هل يقدر الحيوان علينا ؟

عند غـروب الـشـمس فى أحـد الأيام . هاجم الـثـعلب دجـاجات سـمـينات أمـام أحد الدور . شـاهده الأطفـال . صرخوا . صاحوا . قـذفوه بالطوب . جذبوا عيدان الحطب لمواجـهتـه . لكن أين هو ؟ فـر مسـرعـا حامـلا الدجاجـة

الداميـة فى فمه .. قابضـا عليها بأنيـابه .. ودماؤها تقطر على تراب الحارة الضيقة ..

« لم يعد هناك شك .. رأيناه بأنفسنا »

فى المساء قال الأبناء لآبائهم :

ـ رأينا ثعلبا يفترس الدجاجات اليوم .

ابتسم الآباء من جهل الأبناء !

الثعلب يرعى فى القرية .. والعقول الصـغيرة تكاد تقفز من داخل جماجمها لتطارده .. لكن كيف ؟

الكمين .. نعم الكمين ..

ـ نغريه بفريسة ..

ـ لكن من أين نأتى بها ؟

ـ الحارات مبذورات بالدجاج والبط والأوز .

ـ كيف نأخذ منها ؟

ـ كما يأخذ الثعلب !

تطوع أحـدهم وأتى ببطة مبـحوحـة الصوت .. لتـسـهل سرقـتها .. لا تقـولوا سرقة .. إنهـا التضـحية فى سـبيل الهدف النبيل ..

الأعين الصـغـيـرة خلف تلال السـبـاخ وأكـوام الحطب تراقب البطة المربوطة .. الـوقت يمر .. واللئيم لا يخـرج ..

لكن من أين يخرج ؟

ـ ربما هو فى وسط هذا الحطب .

ـ أو فى جحر تحت هذا السباخ .

غابت الشمس .. أوشك الليل أن يطبق تماما ..

ـ علينا أن نعود بالبطة ..

ـ هيا يا صاحب البطة هات بطتك

تراجع الآخرون ..

ـ من يدرينا أن الثعلب لن يهاجمنا ونحن نحل البطة من الوتد ؟

تركوا البطة وفروا عائدين .. وفى الصباح كانت البطة قد افترست !

ينطلق الأطفال كل صباح فى أرجاء القرية يبحثون عن الثعلب .. فوق الأسطح .. فى الحظائر .. فى الأجران ..

يفتشون الأرض بحثا عن جحر .

يدعون الله أن يوقع به لهم ! أصبحوا يصلون الجمعة خصيصا ليدعوا الله أن يوفقهم فى جهادهم !

صاحت الصغيرة :

ـ ها هو

فزع الآخرون إليها

- أين ؟ أين ؟

- ل .. ليس هو . وإنما مخبؤه ..

داهم الأطفال المخبأ . فتشوه . بقايا عظام الفرائس فى كل مكان . الحظيرة المهجورة مخبأ خبيث للحيوان الخبيث.

جروا لآبائهم ..

- عرفنا أين يختبئ .. فى الحظيرة المهجورة بطرف البلد ..

ابتسم الآباء من جهل الأبناء !

● ● ●

الصغيرة رأته . هاجم الحيوانات والطيور . نحن رأيناه. عرفنا مخبأه .

- لماذا لا يصدقون ؟

- **أين أبوك يا صغيرة ؟ ألم يره معك ؟**

- لماذا لا يقنعهم أن هناك ثعلبا ؟

- هل لابد أن يأتى الثعلب إلى داره ويقضم أذنه ليحدث بما رأى ؟

خجلت الصغيرة . أحرجها أبوها .

جرت إليه لتعاتبه .

الظلام خيم وهى تغذ السير إلى دارها .

لمعت العينان البراقتان فى الظلام. تسمرت خطواتها .

تقدم الثعلب . صار ضخما . قويا . جريئا .

وقف قبالتها ..

سألته :

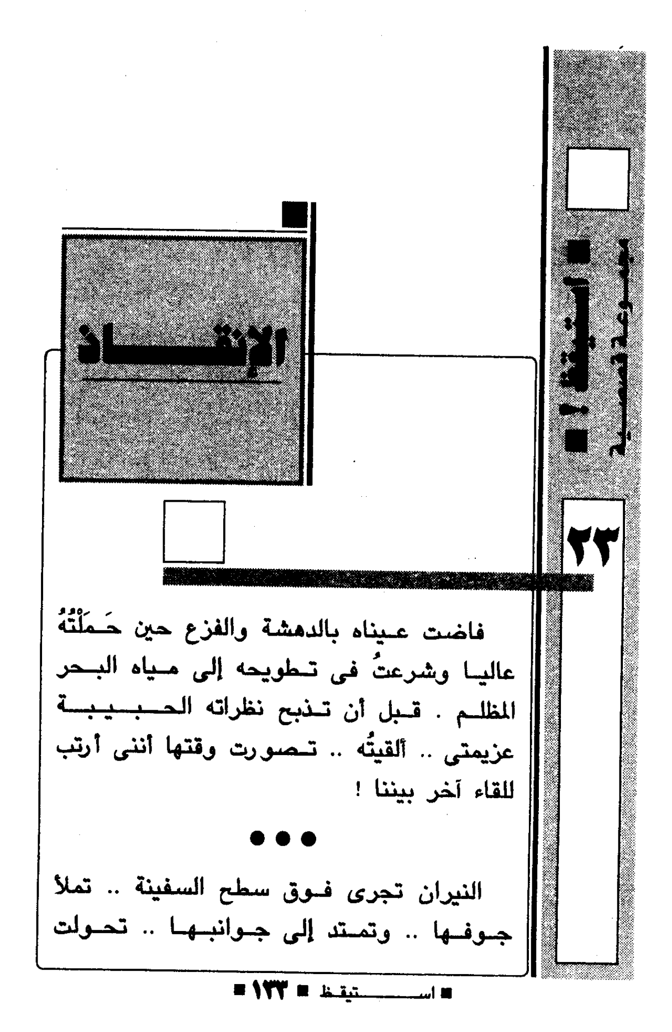
ـ من أنت ؟

أنا الثعلب !

افترسها وهى تصيح

أبى .. أبى .. الثعلب يأكل قلبك .. ألا تستيقظ ؟

اغسطس ١٩٨٩



فاضت عـيناه بالدهشة والفزع حين حَـمَلْتُهُ عاليـا وشرعتُ فى تـطويحه إلى مـياه البـحر المظلـم . قـبل أن تـذبح نظراته الحـبـيـبـة عزيمتى .. ألقيتُه .. تـصورت وقتها أننى أرتب للقاء آخر بيننا !

●●●

النيران تجرى فـوق سطح السفينة .. تملأ جـوفـها .. وتمـتد إلى جـوانبـهـا .. تحـولت

السـفيـنة إلى كتلـة نار فى وسط الماء .. نار مـتمـردة .. ثارت على طبيـعتهـا .. لم تخف الماء .. تحدته وهزمـته .. وصار هو - عـدوها الوحيد - ضعـيفا .. خجـلا.. يتوارى تحت قاع السفينة فى ذلة ..

سـدت النار علينا كل مـهرب .. لم تـترك لنا إلا جـزءا ضـئـيـلا من سور مـنخـفض يسلم إلى البـحـر المظلم .. شجعـها جبن الماء على الطغيان فطغت وتجـبرت .. صارت تضربنا بسياط لهيبها .. الماء قريب .. لا أعرف السباحة ؟ لا أستطيـع مقاومـة النار .. هذا موت وذاك مـوت .. يفر المرء أحـيـانا من مـوت إلى مـوت .. فى تلك اللحظات الرهيبـة التى تكاد يد الموت تطبق على حيـاتنا لا يهمنا إلا الفرار .. لا نفكر إلى أين .. المهم أن نفر ..

إحتويتك يا صغـيرتى فى صدرى .. انحنيت عليك أتلقى بدلا منك لفـحات سـيـاط النار .. رأيت الناس يقفـزون .. أصبـح واضحا أن الـنار قد اعتـزمت سد المـهرب الوحـيد المتبـقى .. فأرسلت لسانا طويلا يجرى بمحـاذاة السور .. فقد الجميع عقولهم .. تدافعوا وتسابقوا وسقطوا من خلال لسان اللهب مشتعلين فى الماء ! الصراخ .. وفحيح النيران وصيحات الرعب تعمى القلوب !

جـريت بك يا صغـيرى خـلال لسـان اللهب .. شعـرت بذراعـيك يتـشـبـثـان بعنقى وبوجـهك يلتـصق بشـدة فى

وجهى.. فى نفس اللحظة التى طوحت فـيها ذراعى للخلف تمهيـدا لقـفذك إلى البـحر .. **رشـقت عينــاك عينى** ! لا يا صغيرى أن انقذك .. صدقنى .. لا تخف .. طوحتك بكل ما أوتيت من قوة .. بكل ما لدى من حب ..

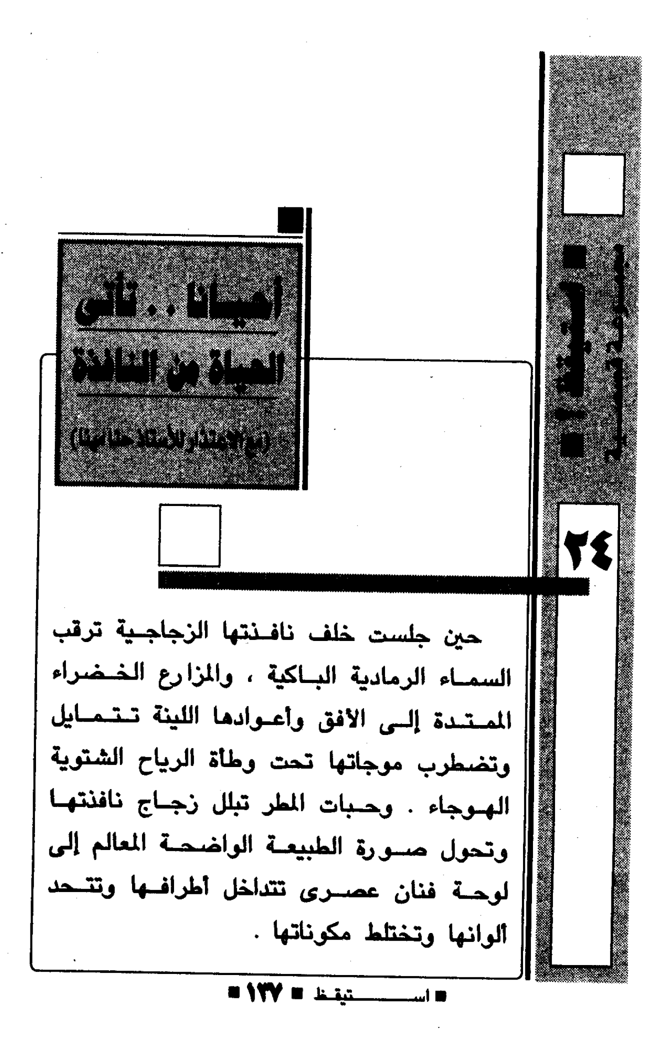
تُهْتَ فى الـظلام .. أصـخـتُ السـمع لألـتـقط صــوت ارتطامك بالماء .. فلم يصلنى شئ .. نسـيت أنى فى لسان النار ..

●●●

راقـد أنا فى مسـتشـفى تداوى حروقى .. أمك تخـفى عينيـها الباكـيتين عنى .. كى لا أرى فـيهمـا نفس السؤال الذى ينبحنى دوما ..

« مادام القـفز إلى البحر كـان إنقاذا .. فلماذا لم تقـفز معه ؟ »

مايــــو ١٩٩٤



حين جلست خلف نافـذتها الزجاجـية ترقب السمـاء الرمادية البـاكية ، والمزارع الخـضراء المـتـدة إلـى الأفق وأعـوادها اللينة تـتـمـايل وتضطرب موجاتها تحت وطأة الرياح الشتوية الهـوجاء . وحـبات المطر تبلل زجـاج نافذتهـا وتحول صـورة الطبيعـة الواضحـة المعالم إلى لوحـة فنان عصـرى تتداخل أطرافـها وتتـحد ألوانها وتختلط مكوناتها .

حين أخـذت ترقب الطريق الضـيق وسط الحـقـول والأطفـال يجرون عليـه كـأنهم حبـات عـقد مـصفـوف .. واضعين حـقائبهم المدرسـية فوق رؤوسـهم اتقاء للمطر .. وصرخاتهم المرحة تطير فى الفضاء كفراشات لا هدف لها.

حين انزلقت قدم أحدهم فسقط وسقطت مـعه حقيبته ، وانفرط العـقد يسـاعد الحبـة الساقطة ! تعالـت الضحكات البريئة بعد أن اكتسبت تلك الحبة لونا أسود يقطر وحلا !

حين توارى الكلـب المبـتل خلف ألواح الخـشب القـديم المتراصة يلعق جسمه وينطره فتتناثر حوله كرة من الرذاذ وكأنه هو الآخر يمطر بطريقته الخاصة مقلدا السماء !

حين انخلع قلبـهـا على الأم المطحـونة تحـمل الرضـيع وتلفلفه فى شالها وطرحتهـا .. تضمه كأنما تريد أن تدفئه فى أحشائهـا وتحميه بجوارحـهـا ، فتزداد الأمطار .. وتلح السماء فى بكائها البارد .. ويتعالى شـهيقها رعدا مدويا .. فلا تنفع طرحة ولا شال وتبـتل الأم وتتحول هى الأخرى إلى سمـاء تمطر ، فتـتوارى خلف نفس الألواح الخـشبـية تعيـد لفلفة الوليـد ، والكلب إلى جوارها ينظر فـى تعاطف إليـها وقـد تحول مظهـر فروته المبتلة إلى مظهـر جلدى ناصع وبدا وجهه - بفعل الأمطار - كـما لو كان قد خرج لتوه من تحت يد حلاق سوق القرية !

حين رأت الشـيخ العـجـوز يتـكئ على عـصـاه بيـد ،

ويستند إلى الحوائط والأشجار بيد ، وينقل قدمه فى ثقل ثم يعيدها ثانية لينتزع بلغته التى ابتلعها الطين ، ثم ينقل عصاه ثم قدمه ثم قدمه .. فى إيقاع واحد وكأنه يسير بثلاثة أرجل على التوالى .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. سيصل حتما بعد أن يتشبع تماما بعبرات السماء ويصبح غير قابل لامتصاص المزيد منها !

حين وجدت الملاءات والمراتب والوسائد تجرى إلى الدور فوق رؤوس الفلاحات بعد أن أصابها البلل بدلا من أن تجففها الشمس .. والأطفال حولهن .. أقدامهم عارية .. وسيقانهم مكشوفة .. بل أنصافهم السفلى كلها لا يحجبها عن البرد حجاب .. وتتلقى المطر فى مرح ويسر !

حين رأت أشجار الكافور العملاقة تتمايل فى وقار غاضب ! والرياح تعبث بفروعها وأوراقها فينحنى ما ينحنى .. ويطير ما يطير .. ويتشبث ما يتشبث .

أحست بالدنيا تناديها .. برائحة البرد فى أنفها .. بحفيف الرياح على وجهها .. فتحت نافذتها .. فاقتحمتها الرياح تتدفق حيوية ورعونة ! امتلأت حجرتها بأوراق الكافور .. وزكمت أنفها رائحة الطين المبتل ..

رفعت ياقة «الروب» لتحتمى من البرد .. ابتل شعرها الأسود ولمع .. وأحست بأنفها وكأنها قطعة من الثلج على وجهها !

امتلأت رضا .. فالحياة تأتى للبعض - أحيانا - فى منازلهم !

فى المساء .. جلست على مقعدها المتحرك تحكى لضيوفها - فى حيوية تتدفق - كيف كان الطقس اليوم خارج المنازل باردا غاية البرودة !

يناير ١٩٩٢



وأنا جالس إلى جوار « شوق » فى السيارة لم نكن نتبادل الحديث .. المشاعر والمخاوف والرجاءات زاحمت بعضها عند بوابة اللسان .. فلم يتمكن شئ منها من الخروج .. مازالت « شوق » جميلة كما كانت يوم زواجها من « عبداللاه » .. فى ذلك اليوم الذى علا فيه صراخى .. لأننى لن أنام إلى جوار أخى على المرتبة الجديدة

المنتـفـخـة .. يومـهـا غـضـبـتُ على « شـوق » ـ التى أحضروها دون سبب واضح ـ لتـحتل مكانى فى حضن أخى « عبد اللاه » ! لكن بعد خمسة أيام .. عدت لأنام على المرتبـة التى كانت مـا تزال منتفـخة .. فـقد سـافر « عبـداللاه » بعد أن وصله استدعـاء الجيش .. فى ذلك اليـوم تصالحت مع « شـوق » .. بعـد أن رأيتهـا تبكى قائلة :

ـ أهكذا يا « عبد اللاه » ؟

فيهمس لها أخى الطيب :

ـ يومان وارجع يا « شوق »

ولم يرجع « عبـداللاه » .. هو الوحيد من أبناء كـفر « أبى العـلا » الذى لم يرجع .. « على » رجع سـالما .. و « متـولى » رجع تنقصه سـاق .. أما « صابر » فـقد رجع تنقصه حياته ..

رغم مـرور الأعـوام الطـوال .. مـا زالت « شـوق » جميلة فقراء كفرنا ..

« شوق » ذات الأحلام المتواضعة التى كانت تصحبنى للسوق .. ولزيارة أمها .. حيث أشرب الحلبة الساخنة ..

« شوق » التى سامـحتها يوم رأيتـها تبكى فى وداع « عـبد اللاه » .. والتى سـمـحت لى بالنوم على المرتبـة المنتفخة رغم قدمى الملوثتين بالطين ..

« شوق » هذه .. مسافرة الآن معى للمدينة البعيدة ..

ترى هل سأعود بك دامعة العينين يا « شوق » ؟ ليتنى أطعت زوجتى التى نصحتنى بالتأكد من الأمر قبل أن أعشمك .. لكنى أحيانا أرفض نصائحها « لأننى أستطيع تقدير الأمور بنفسى » .. سعيدة أنت يا « شوق » .. ماذا إن أخفقت الرحلة ؟

ـ أمازال الطريق طويلا يا « مرعى » ؟

* هانت يا « شوق »

ترى كم عمرك الآن ؟ كنت فى الرابعة عشرة يوم تزوجت «عبد اللاه» منذ ثمانى عشرة سنة .. تتعجلين الآن الدقائق يا شوق ؟ تتعجلينها كما تعجلتها أمى يوم ذهبتِ إلى دار أبيك .. حين أخذت تروح وتجىء .. ثم أمرتنى بالذهاب إليك دون أن أخبر أبى .. جريت إليك حافيا .. رافعا ذيل جلبابى .. ساعيا إلى كوب الحلبة الساخنة .. وجدتك ثائرة غاضبة .. وأمك تلاحقك .

ـ لقد مات يا ابنتى ! ألم تأت الورقة ؟

فتصرخين فيها

* أى ورقة ؟ هل رأيته أنا ميتا ؟ هل دفنوه ؟ أى ورقة؟ الناس لا تموت بورقة يا امه !

جريت وراءك إلى الشارع .. خطواتى الصغيرة لا تلاحق خطواتك الغاضبة .. نسيت الحلبة .. كرهت أمك التى أغضبتك .. وجدنا أمى أمام دارنا .. أسرعت وراءك للداخل .. لاحقتك مثلما لاحقتك أمك .

- طمئنينى يا « شوق » !

لن أترك دار « عبد اللاه » يا امه

لم أفهم لماذا كنت تتحاشين نظراتها يا « شوق » .. ولم أفهم لماذا تشاجر أبى مع أمى وظل يكرر لها منذ ذلك اليوم

« حرام عليك »

« ذنبها فى رقبتك »

- أتذكر « عبد اللاه » يا « مرعى » ؟

أفاقنى السؤال المباغت

* طبعا يا « شوق »

- كان فى مثل عمرك لما ذهب

* بل أصغر

- كان يتمنى أن تكمل دراستك .. لن تسعه الدنيا حين يراك اليوم !

ألطف يارب .. ألا تتوقعين أى خطأ أو فشل يا « شوق » ؟ ماذا لو اتبعت نصيحة زوجتى ؟ لطفك يا رب !

فى المستشفى صرح الطبيب بصوته الخارج من أنفه.. الخالى من المشاعر ..

- المريض عندنا منذ أربعة أشهر .. وجدوه تائها فى

الصحـراء .. من الواضح أنه تعرض لتعـذيب شديد أثناء أسره .. هو الآن فاقد الإدراك .. وحين يـسأل عن اسمه يجيب برقم

ـ ألن يعرفنا يا بيه ؟

نهض الطبيب دون أن يهتم بسؤال « شوق »

تبعناه إلى حجرة صغيرة ..

صاحت « شوق » بصوت جمع انتظار السنين وفرحة اللقاء ..

ـ « **عبداللاه** » !

جـالس هو فى ركن الغـرفة .. ضـاما ركبـتيـه إلى صدره .. محيطا ساقيه بذراعيه .. مشبكا أصابع كفيه .. يرمـقنا بنظرات لا تحـمل أى مـعنى .. مدت « شـوق » أناملهـا نحو شـعـره الذى تسرب إليـه المشـيب. فأجـفل ورجع بعنقه للوراء..

ـ ألا تعرف « شوق » يا « عبد اللاه » ؟

سألته متوددا .. ظل يرمقنا بعينى دمية جامدتين

● ● ●

عادت «**شوق**» بـ «٣٤٧» كما كان يسمى نفسه !

ادخلتـه داره فانكر كل من فـيها .. ورغم ذلـك شقت الزغاريد قلب الحزن فقتلتـه .. صـارت الدار أكثر أملا .. وسمع فيها صوت ضحكات .. سعدنا بعودة « عبداللاه » حتى لو كان بلا نفسه !

احتوته « شوق » .. علمته كيف يبسط وجهه ليبتسم .. كيف يمد يده ليصافح .. كيف يجلس بجانب من يحبهم ليتودد .. أقول لها :

- دائما يجلس بجانبك يا « شوق »

فتحيطه بذراعها .. وتقربه منها .. وتعلمه مثل كل يوم:

- أنت « **عبد اللاه** » .. هذا أبوك .. وهذه أمك .. هذا أخوك .. وهذه دارك ..

ويوم ابتسم « **عبد اللاه** » .. وأطلت من عينيه سعادة طفل سيقدم لأمه مفاجأة طال إعداده لها .. وقال فى خجل :

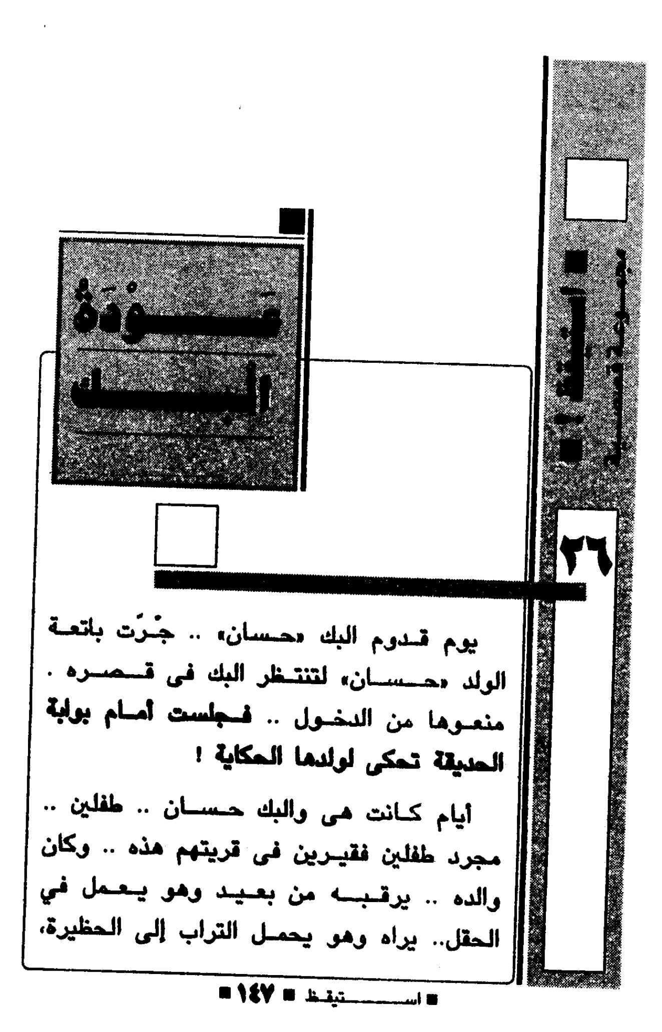
- أنـ .. إنت .. شـ .. شوق ..

وضعت « **شوق** » كفها أمام فمها وأطلقت زغرودة طويلة

وصاحت :

- قطعى الورقة يا امه .. عبد اللاه رجع بالسلامة !

يوليه ١٩٩٠



يوم قدوم البك «حسان» .. جَرَّت بائعة الولد «حسان» لتنتظر البك فى قصره . منعوها من الدخول .. **فجلست أمام بوابة الحديقة تحكى لولدها الحكاية !**

أيام كانت هى والبك حسان .. طفلين .. مجرد طفلين فقيرين فى قريتهم هذه .. وكان والده .. يرقبه من بعيد وهو يعمل في الحقل.. يراه وهو يحمل التراب إلى الحظيرة،

ويسوق الجاموسة التى تدير الساقية كلما هدأ دورانها .
وهو مطمئن وراض بانصياع ابنه للأمر وتركه مذاكرته !

لو اقترب قليلا لتبين الأمر على حقيقته ، الأبن كامن فى مخبئه الأخضر وسط أعواد الذرة وفى يده كتابه ! والصديقة الصغيرة تعمل بدلا منه ..

تضحك باتعة فى جذل وهى تحكى لولدها حسان

« كنت أرتدى جلبابه وطاقيته وأعمل بدلا منه ! وهو يعصب رأسه بمنديلى المطرز ويرتدى ثوبى المشجر ويقرأ فى كتابه »

كثيرا ما حملت « باتعة » التراب والسباخ وأكوام الحطب وأجولة التبن ليقتنص حسان ساعات يمضى خلالها نحو النجاح وهو متنكر فى جلبابها المشجر . لم تكل .. ولم تسأم .. ولم تبح بالسر .. وظل الأب يرقب برضا انصياع ولده ويغبط هيمنته وسطوته عليه .

وحين نجح حسان .. رحل إلى المدينة الكبيرة حاملا شهادته الكبيرة متطلعا نحو أحلامه .. وانقطع عن قريته .
وظلت باتعة ترقب عودته .. وحين كانت تصلها أخبار نجاحه يزغرد قلبها .. فلها فى هذا النجاح نصيب !

« قالوا إن حسان بك لن يعود .. وها هو قد بنى « سرايا » فى وسط البلد .. أصبح لنا سند يا حسان »

اغتبط الصغير بصلة أمه الوثيقة بهذا الهابط من سماء المجد إلى قريتهم ! ودبر فى نفسه أسلوبا جديدا للتعامل مع الأطفال الذين لم تكن لهم ولا لآبائهم يوما صلة بالبك صاحب « السرايا »

« قال لى جميلك فوق رأسى يا باتعة »

قلب الصغير يرفرف سعيدا .. يا بركة الله .. أخيرا أصبح له درجة ودرجات على باقى الرفاق المتعالين عليه وعلى فقره .. وكيف لا ولأمه الفضل على البك نفسه ؟!

« أسميتك حسانا على اسمه »

الولد حسان يكاد يطير ..

« اسمى على اسم البك يا امه ؟ »

● ● ●

جاء الركب ..

نزل البك من إحدى السيارات عابسا .. لم يحاول أن ينظر إلى قريته التى هجرها منذ سنوات .

اخترقت «باتعة» الصفوف مجرجرة حسان فى يدها .. وقفت قبالة البك ضاحكة متهللة .. لمحتها عينا البك فعرفها تردد أمامها برهة ثم استدار نحو ضيوفه العظام ..

« تفضلوا .. تفضلوا »

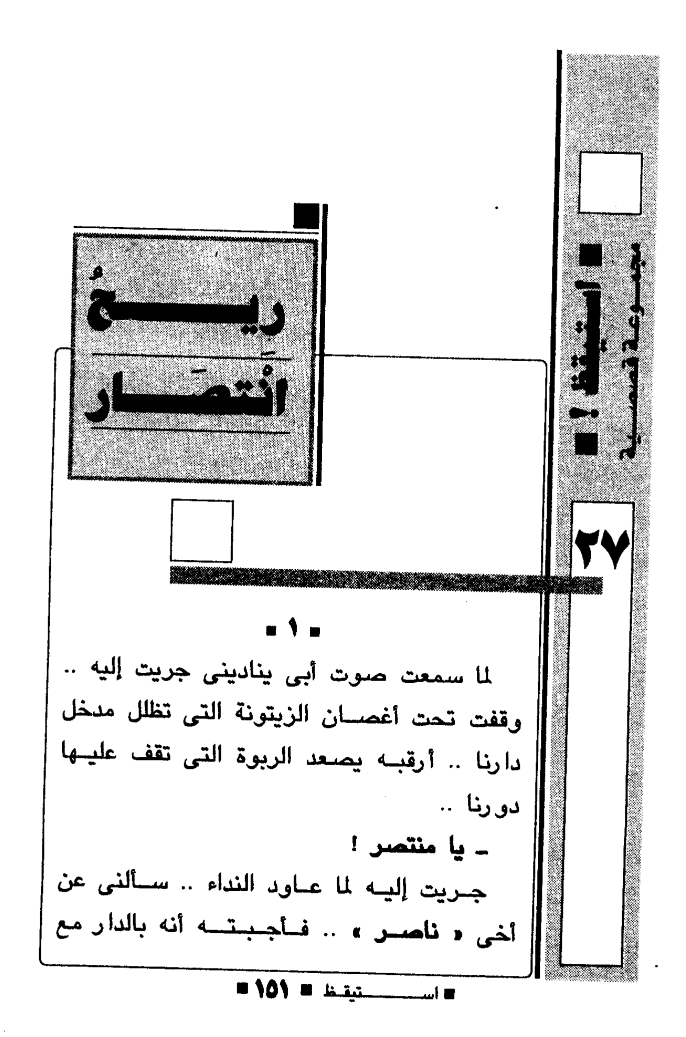
عبرها إلى داخل « السرايا »

● ● ●

«باتعة» والولد «حسان» واقفان بمفردهما أما السراى .. جرته فى يدها ومضت نحو دارها صامتة !

والولد يسأل فى حيرة : « **لماذا لم تكلميه يا امه ؟** »

مـــارس ١٩٩٤



ريحُ انتصَار

■ ١ ■

لما سمعت صوت أبى ينادينى جريت إليه .. وقفت تحت أغصـان الزيتونة التى تظلل مدخل دارنا .. أرقبـه يصعد الربوة التى تقف عليـها دورنا ..

ـ **يا منتصر !**

جـريت إليـه لما عـاود النداء .. سـألنى عن أخى « **ناصـر** » .. فـأجـبتـه أنه بالدار مع

أمى .. سـألنى الم يخرج ؟ عـرفت من أسـئلة ابى .. ومن عودته المبكرة .. أنه لم يستطع مغادرة الضفة ..

جلسنا تحت الزيتـونة الخـضراء .. لمحت الكدمـة التى يداريها أبي بشاله ذى المربعات الحمراء والبيضاء .. تخيلت مـا دار بيـنه وبين المسلحين ذوى الخـوذات .. ورنت فى أذنى آهتـه المكتـومة لما ارتطم كـعب البندقـيـة بصدغـه .. ناولته ثمرة البرتقال التى قـشرتها دون أن انتبه .. ابتسم فبـرزت وجنته الزرقاء .. ترى كم من الأيام ستـمر ونحن هنا جالسون نقـشر ثمار البرتقـال ؟! ادعت أمى أن صحة شقيقتى « **انتصار** » فى تحسن .. لكننا جميعا ندرك أنها ما تزال سـيئـة .. الكدمة فى وجـه أبى أعرف أنهـا بسبب دواء « **انتصار** » الذى منعوه من الخروج لإحضاره .. بعد أن منعونا من الذهاب لأعمالنا .

عاد أبى يسأل « **ناصرا** » :

- ألم تخرج اليوم يا ناصر ؟

هز ناصر رأسه نفيا وهو يفرك بذرة برتقال ..

■ ٢ ■

بعد دفن شقيقتى « انتـصار » .. لم نجلس معا تحت الزيتونة .. بل جلسنا فى الحجرة التى كـانت ترقد فيها .. حيث رقدت أمى تنسـاب الدموع من عينيهـا فى حسرة ..

وعلب دواء « انتصار » الفارغة مازالت ملقاة فى جانب الحجرة ..

سأل أبى عن أخى « ناصر » .. فأجبته ربما يكون أمام الباب .. خرج أبى وخرجت وراءه .. لم نجد « ناصرا » أمام الباب .. دققنا أبواب الجيران .. فلم نجده ..

لما عدنا للدار كان « ناصر » قد عاد بكدمة فى صدغه ! تخيلت مادار بينه وبين حاملى البنادق ذوى الخوذات .. رأيت نظرة التصميم التى أطلت من عينيه لما ارتطم كعب البندقية بصدغه !

■ ٣ ■

كنا جالسين فى حجرة « انتصار » نتنسم ما بقى من ريحها .. لما سمعنا هدير الجرافات .. عندما وصلنا لباب الدار كانت الجدران قد بدأت تنهار .. صرخت أمى .. فارتطم كعب البندقية بصدغها فكفأها أرضا ! أنهضتها .. كتمت نحيبها فى صدرى .. لم نحاول أن نفهم .. أصبح كل شئ غير مفهوم .. الدور الخمسة دكت .. ونحن ننظر عاجزين .. متاعنا .. ثيابنا .. غطاؤنا .. جدراننا الأربعة وسقفنا .. عبير « انتصار » الذى كنا نتنسمه ..

لم يعد لدينا شئ إلا كدمات بالوجوه وحسرة بالقلوب..

تهاوت الجدران .. لفظت البيوت ما فيها .. حتى أوانيها وملاعقها وسكاكينها ..

وجـدت يدى تعلو وتهبط بـسكين .. وقطع من الجحـيم تنغرز فى جسدى .. تهزنى .. تؤرجحنى .. أمى تصرخ

ـ يا « منتصر » !

والأصوات تعلو لا إله إلا الله .. سـقطت على الأرض .. إلتقت عيناى بعينـى « ناصر » وبللت وجهى دموع أبى .. وشممت ريح « انتصار » تملأ المكان !

يوليـــو ١٩٩٧

الفهرس

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ١٣٠٦١/٩٧
الترقيم الدولى
I. S. B. N. 977 - 08 - 0684 - 6

طبع بمطابع دار أخبار اليوم